الجزء الثاني

-32-

في صبيحة اليوم اللاحق على الخطاب الذي أعلن فيه الرئيس إرسال مزيد من القوات إلى العراق، ذهب إلى فورت بينينغ (بولاية جورجيا) للتحدث أمام العسكريين وأسرهم. عارض قراره الجنرال كيسي والجنرال أبي زيد، قائداه العسكريان الميدانيان. في حين اقترح الجنرال بيس ورؤساء الأركان زيادة أقل حجماً، في حال الموافقة على أي زيادة. أما الجنرال شوميكر، رئيس هيئة أركان الجيش، فقد أوضح دون لبس أن الألوية الخمسة ليس لها وجود فعلاً في سياسة الجيش الحالية القائمة على تبديل مناوبة القوات كل اثني عشر شهراً. وظل غيتس مشاهداً على الأغلب في أثناء العملية، مع أن التنفيذ يقع الآن على عاتقه. لكن في ذلك الصباح، اعتقد الرئيس أنه سطر نسخته الخاصة من التاريخ.

«القادة الميدانيون على الأرض في العراق، هم الذين أستمع إليهم –بالمناسبة، هذا ما تريدون من القائد العام أن يفعل. لا تريدون قرارات تتخذ اعتماداً على السياسة أو مجموعات الضغط التمثيلية أو الاستطلاعات السياسية، بل تريدون أن تتخذ قراراتكم العسكرية بواسطة الخبراء العسكريين المتمرسين. وهؤلاء حللوا الخطة، وقالوا لي وللحكومة العراقية: لن تنجح إلا إذا قدمنا العون والمساعدة. ثمة حاجة إلى وجود أكبر حجماً» [1].

وشرح بوش قائلاً: «ونظر قادتنا إلى الخطة وقالوا: السيد الرئيس، لن تنجح الخطة إلا إذا قدمنا الدعم وأرسلنا مزيداً من الجنود».

* * *

بغض النظر عن الطريقة التي رأى كيسي الخطة عبرها، ظل يتوصل إلى نتيجة مفادها أن الزيادة كانت مناورة سياسية لا عسكرية.

قال في السر فيما بعد: «شعرت دوماً أن الزيادة استهدفت بناء الدعم والتأييد على الصعيد الداخلي لا النجاح على الأرض في العراق. فهي تمنح الرئيس بعض الوقت. لكن لا أعلم كم تمنح من الوقت في العراق».

حتى في هذه الحال، اعتقد كيسي أن بناء الدعم والتأييد على الصعيد الداخلي أمر مشروع، ففي غيابه لن ينجح المجهود الحربي أبداً. والسؤال هو: هل تمكن الرئيس من الحصول على الوقت الكافي لتحويل مسار الحرب أم اكتفى بتأجيل يوم الحساب؟

في الثالث والعشرين من كانون الثاني، حضر الجنرال ديفيد بترايوس جلسة لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ للموافقة على تعيينه. قالت سوزان كولينز (جمهورية عن ولاية مين) المعروفة بفكرها المستقل: «قرأت مقالة مهمة جداً لك عن مكافحة التمرد نشرت قبل سنة في المجلة العسكرية ميليتاري ريفيو (Military Review). وعرضت أربع عشرة ملحوظة اعتماداً على مناوباتك وخبراتك السابقة».

«وحين نظرتُ إلى هذه الملحوظات –ملحوظات أظن أنها مترعة بالرؤى الثاقبة وأوافق عليها– استنتجت أنها لا تتسق مع الإستراتيجية الجديدة التي نوشك على تطبيقها. ففي ملحوظتك الأولى، حيث استشهدت بما قاله لورنس [العرب] في آب من عام 1917، قلت: لا تحاول القيام بكل شيء بيديك. وتحدثت عن ضرورة ارتقاء العراقيين إلى مستوى المسؤولية. أقلقتني حقيقة أن الإستراتيجية التي نوشك على اتباعها في هذا البلد تزيل الضغط عن العراقيين للقيام بواجبهم... ومن ثم نحن نرتكب الخطأ الذي حذرت أنت منه» [2].

أجاب بترايوس: «بصراحة، ما وصفتِه كان بالفعل توتراً فكرياً حول المهمة في العراق منذ البداية. ففي الذهن دوماً حكمة لورنس العرب فيما يتعلق بضرورة عدم القيام بالمهمات كلها بأيدينا، واعتدنا أن نقول: ما نريد أن نفعله هو مساعدة العراقيين على الوقوف على أقدامهم. نريد أن نكون قربهم. نريد أن ندعمهم. لكنهم في بعض الأوقات يترددون ويتعثرون، والسؤال هو: متى نعود ونقدم المساعدة والعون؟ في أعقاب تفجير مسجد

سامراء والعنف الذي تصاعد طوال الشهور الأخيرة من عام 2006، أعتقد أننا وصلنا إلى نقطة نحتاج عندها فعلاً إلى زيادة المساعدة قليلاً، خصوصاً في مجال توفير الأمن».

بعد قرابة أربع سنين من الغزو، سوف يبدأ بترايوس من جديد في العراق.

بعد ثلاثة أيام، في السادس والعشرين من كانون الثاني، صادق مجلس الشيوخ بالإجماع (81-0) على تعيين بترايوس [3]. والتقى بوش في المكتب البيضاوي ذلك الصباح مع غيتس وهادلي وبيس وبترايوس.

قال بوش بعد قليل: «أريد التحدث مع قائدي». وحين أصبحا على انفراد، راجع الرئيس بإيجاز قراره بزيادة عدد القوات، أو ما دعاه بـ«مضاعفة الرهان».

قال بترايوس: «السيد الرئيس، هذا ليس مجرد رهان مضاعف»، إذ يجب أن تشارك الحكومة الأمريكية برمتها، والمؤسسة العسكرية الأمريكية برمتها. «إنه قرار يشمل الجميع».

في الثلاثين من كانون الثاني 2007، عقدت لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ جلسة للموافقة على تعيين فالون [4].

سأل السيناتور جون مكين: «ما درجة ثقتك أن الحكومة العراقية والمؤسسة العسكرية العراقية على مستوى المهمة التي نقوم بها الآن وفقاً لهذه الإستراتيجية الجديدة؟». قال فالون إن هناك بعض الجنود العراقيين الأكفاء، وغيرهم بحاجة إلى عمل كثير، وذلك وفق تقويمه الأولي. ثم إن بعض الزعماء العراقيين أكفاء، وبعضهم الآخر يفتقد الكفاءة والفاعلية. والمهمة الضرورية كما قال هي إجراء تقويم نزيه لما هو واقعي وعملي.

أضاف فالون: «ربما يجب علينا إعادة تعريف الأهداف هنا، والقيام بخطوات أكثر واقعية فيما يتعلق بإحراز التقدم».

التقى فالون فيما بعد بمكين على انفراد. قال مكين إنه سمع أن فالون لا يؤيد فعلاً خطة بوش لزيادة عدد القوات.

قال فالون: «لا توجد خطة، بل مجرد تخصيص موارد إضافية. علينا معاينة الخطة حين يصل بترايوس إلى هناك».

* * *

في يوم السبت العاشر من شباط، حل بترايوس محل كيسي، وأقيمت مراسم رسمية في كامب فيكتوري، في القاعة الرئيسة المترفة والمزخرفة بالأعمدة المرمرية والثريات الكريستالية داخل أحد قصور صدام حسين السابقة بالقرب من مطار بغداد الدولي. وأعلن بترايوس أن الوضع الذي ورثه «صعب» لكنه «ليس يائساً» [5].

التقى الجنرالان على انفراد بضع ساعات. وقف كيسي أمام خريطة للعراق ووصف الوضع الراهن في كل محافظة. قال: «تعلم أنني طلبت لواءين اثنين. ولا أؤيد إرسال البقية. لكنني وضعتها على استعداد في حال احتجت إلى جلبها».

وأضاف: «لدينا هذه الألوية على أتم استعداد. وسيصل واحد منها، الأول، إلى هنا في الأسبوع القادم، والثاني وافق عليه المالكي. لكن البقية لم يوافق عليها، إلا أنها مبرمجة لتصل إلى الكويت، واحد كل شهر، وستعمل أنت معه على هذه المسألة».

«ما نراه هنا تغيير رئيس في الإستراتيجية، ونقل مسؤولية القيام بالمهمات من العراقيين إلينا. لكن مهما تفعل، ومهما تقرر، يجب أن توضحه؛ لأن التغيير عميق وكبير».

كان كيسي يترك المنصب ليصبح رئيساً لهيئة أركان الجيش، وهذه ترقية من الناحية التقنية، تجعله مسؤولاً عن تجنيد القوات وتدريبها وتجهيزها، لكنه لم يعد جزءاً من سلسلة القيادة. قال الجنرال الفخور بشيء من الحزن: «هذا يتعارض مع كل شيء فعلناه طوال سنتين ونصف السنة».

كان بترايوس مسؤولاً عن تدريب العراقيين حين طورت الإستراتيجية الانتقالية، وأعلن تأييده ومساندته إياها. يجب توضيح هذا التغيير، كما قال كيسي، للجنود الأمريكيين والعراقيين على حد سواء.

حذر بترايوس قائلاً: «كل جندي تجلبه إلى هنا سيبقى طوال مدة مناوبته الكاملة. أنت بحاجة إلى فهم ذلك». ففي الماضي، اعتقدوا واهمين بإمكانية إعادة بعض الجنود إلى الوطن في وقت أبكر. لكن ذلك لم يحدث قط. قال كيسي: «كل شخص تجلبه إلى هنا، يصبح في نهاية المطاف عنصراً لا غنى عنه نظراً إلى كثرة المهمات وتعددها». وهذا ما عناه حين أطلق على بغداد اسم «بالوعة جنود».

تذكر الرجلان كلاهما تحذير وزير الخارجية السابق كولن باول للرئيس بوش قبل ستة أشهر من غزو العراق. «ستكون المالك الفخور لخمسة وعشرين مليوناً من البشر»، كما قال باول لبوش. في السر، أشار باول ونائبه وأقرب أصدقائه، ريتشارد أرميتاج، إلى ذلك بوصفه «مبدأ مخزن الخزف»: تكسره فتملكه.

شعر بترايوس، في اليوم الأول ذاك، مع عظم المهمة الموضوعة أمامه، والضغوط التي تمارس على الإدارة في الوطن لتحقيق النجاح، شعر بأنه يرزح تحت ثقل العالم كله. لكنه قال لأقرب مستشاريه: «اقتلع المرآة الخلفية من الحافلة، ودعنا نركز بصرنا على الأمام والآتي. نحن حيث نحن. ربما تشعر بالإحباط. بصراحة، أنا أشعر بالإحباط. ربما يثير الوضع غضبك، لكن دعنا الآن نفكر كيف نحسنه».

أبلغ مساعديه أنه يريد تطبيق مقاربته الجديدة حالاً. ووضع على الفور خطة مؤقتة لحملة مشتركة، وأوضح أن المهمة هي حماية السكان وأن أداءها يجري بالعيش بين الناس.

وقال لهم: «أعظم فكرة هي تأمين السكان وخدمتهم. هذه فكرة بالغة الأهمية. ومن أجل تأمين السكان عليكم العيش بينهم، ومشاركتهم في كل ما تفعلونه». عليهم التحرك وتأسيس محطات أمنية مشتركة، ومخافر أمامية قتالية، وقواعد للدوريات، ونقاط تفتيش حول بغداد.

بعث برسالة قصيرة إلى مرؤوسيه كلهم، بعد أن فكر ملياً في كل كلمة فيها [6]. استخدم كلمة «أمن» ثلاث مرات. «سوف نقوم بحملة محورية لتحسين الأمن للشعب العراقي».

وفيما يتعلق بأولئك الذين يعارضون العراق الجديد، قال: «يجب أن نضربهم دون هوادة. ويجب علينا، نحن والعراقيين، بوصفهم شركاء لا أعداء، وضع شروط الصراع». أما الهدف فهو توفير الوقت الكافي للعراقيين لإنقاذ بلدهم. «ومن أجل القيام بذلك، يجب على كثير منا العيش بينهم والقتال إلى جانبهم».

أبلغ بترايوس مساعديه: «سوف نخرج مع الجنود. سوف نخرج مع بعض الدوريات في بغداد». وأشار إلى خريطة وانتقى منها أحياء تذكّرها حين رأس تدريب القوات الأمنية العراقية، وسمع عنها الآن قصص رعب مريعة: «دعونا نذهب إلى هنا وإلى هنا».

كانت الغزالية المنطقة الأولى، الحي السكني الذي راقبته ميغان أوسوليفان مراقبة دقيقة من البيت الأبيض. تذكرها بترايوس، كانت حياً مزدهراً للشريحة العليا من الطبقة الوسطى. ذهب بترايوس مع الدوريات أيضاً إلى العامرية، القطاع السني في غرب بغداد، والدورة، الحي السني الآخر. سار في الأحياء ساعات طويلة، وصدم بما شاهده. تحولت الأحياء إلى مدن أشباح. ولم يشاهد مثل تلك المناظر في حياته كلها.

أصدر أوامره: «سنبدأ من هنا». ستقام أول محطة أمنية مشتركة لحماية السكان العراقيين في الغزالية، ودعوها: «حاجز الإسمنت الواقي»، حيث جرى عزل ساحات المعارك اليومية بحواجز إسمنتية لتطويق السكان وحمايتهم. من الممكن أن يشن أفراد القاعدة أو المتمردين الهجمات، لكنهم لن يتمكنوا بعد الآن من الدخول بشاحنات تحمل المتفجرات أو القذائف الصاروخية إلى المناطق المحمية من العاصمة.

أدرك أن الغزالية والدورة هما أهم منطقتين في بغداد، وإذا لم يتمكنوا من إعادتهما إلى الحياة مجدداً، وتحسين الوضع فيهما قليلاً، فلن يستطيعوا أداء المهمة الجديدة. أنهى اليوم الأول في منصبه القيادي وهو يشعر بأن ثقل العالم كله يرزح على منكبيه. والآن انتهى اليوم الثاني وعلى عاتقه حمل عالمين اثنين. تذكر حكمة الكاتب الدرامي الروماني سينيكا الابن: «الحظ يأتي حين يلتقي الاستعداد مع الفرصة السانحة». شعر بأنه مستعد، وهذه هي الفرصة. فهل يعني ذلك أن الحظ يحالفه؟

في اللقاء اللاحق عبر نظام الفيديو الآمن مع الرئيس ورايس وغيتس، ذكر أن الأحياء التي زارها كانت مجرد «مدن أشباح».

قال بترايوس: «يجب أن تدركوا أن الوضع سيزداد صعوبة قبل أن يتحسن».

في يوم الإثنين التاسع عشر من شباط 2007 (عيد الرؤساء)، وكان يوماً بارداً عاصفاً، زار بوش ماونت فيرنون، مزرعة جورج واشنطن الممتدة على ضفاف نهر بوتوماك، على بعد ستة عشر ميلاً إلى الجنوب من واشنطن.

قال بوش: «عند رؤية أحداث الماضي من منظور الحاضر، يسهل علينا الاستخفاف بالنجاحات التي حققها جورج واشنطن. لكن طريق أمريكا نحو الحرية كان طويلاً، وشاقاً، ولم تكن النتيجة مؤكدة على الإطلاق». فقد وصل «جيش واشنطن القاري» إلى حافة الكارثة مرات عديدة، لكن «إرادته لم تقهر» [7].

كان يحتفظ بصورتين مرسومتين لواشنطن ولينكولن في المكتب البيضاوي، وكثيراً ما قارن نفسه ببعض أسلافه، ملاحظاً أن حكم التاريخ عليهم يظل أكثر لطفاً ورقة من الروايات المعاصرة.

كانت رايس حاضرة حين أشار بوش إلى بعض اللوحات أمام زوار البيت الأبيض، وقال: «ما يزالون يؤلفون الكتب عن الرئيس الأول جورج واشنطن، ولن يقلقني ما يقولونه الآن عن الرئيس الثالث والأربعين». أو كان يذكر كيف تشبث لينكولن، الذي يعده بوش أعظم رئيس أمريكي، بالمسار في أثناء الحرب الأهلية، على الرغم من الخسائر الهائلة، والهزائم العسكرية العديدة، والشكوك التي حامت حول الانتصار في الحرب.

كان هاري ترومان أيضاً من الرؤساء المفضلين لدى بوش.

قال بوش أمام طلاب سنة إنهاء التخرج في كلية ويست بوينت في العام الماضي: «أوضح الرئيس ترومان دون لبس أن الحرب الباردة كانت صراعاً إيديولوجياً بين الطغيان والحرية. وعبر الأعمال التي قام بها الرئيس ترومان، والمؤسسات التي شيدها،

والتحالفات التي شكلها، والمبادئ التي أرساها، وضع الركائز التأسيسية لانتصار أمريكا في الحرب الباردة... واليوم، في بدايات قرن جديد، نخوض مرة أخرى حرباً لا تشبه أي حرب خاضتها أمتنا من قبل. ومثل حال الأمريكيين في أيام ترومان، نحن نضع الركائز المؤسسة للنصر... لقد أوضحنا دون لبس أن الحرب على الإرهاب صراع إيديولوجي بين الطغيان والحرية» [8].

بعد أيام قليلة من وصول بترايوس، دعا ديفيد كين، معلمه ونائب رئيس هيئة أركان الجيش السابق، إلى قضاء أسبوعين في العراق. أمضى كين أربعة أيام في بغداد، ويوماً في محافظة الأنبار، وآخر في محافظة ديالى. والتقى بخليل زاد وفريق العاملين في السفارة. عمل في التدريب على مستويات القيادة كلها، بدءاً من اللواء مروراً بالكتيبة وانتهاء بالفصيلة.

في السادس من آذار، أوجز كين لنائب الرئيس تشيني رحلته إلى العراق، ليؤسس قناة اتصال خلفية سرية —من بترايوس إلى كين إلى تشيني إلى بوش– حول سلسلة القيادة.

قال كين: «هناك إشارات مبكرة على النجاح، لكن العملية مجرد بداية، إذ لا يمكننا توقع النجاح». لكنه أضاف إن بترايوس أعاد تنشيط المهمة. «لقد منحهم الأمل في أننا نستطيع أداء المهمة».

قال كين إنه حضر لقاء بين بترايوس ورئيس الوزراء العراقي الأسبق إياد علاوي. فمنذ خسارته أمام المالكي، توقف عن مساعدة رئيس الوزراء الجديد، إذ أراد احتلال المنصب مرة أخرى. «هذه الحكومة لن تسقط. وعليك التوقف عن الجلوس على الحاجز آملاً سقوطَها. ساند ما نفعله هنا. وشارك في اللعبة»، كما أبلغه بترايوس.

قال كين إن بترايوس فاز بالإذن من المالكي بمطاردة المليشيات الشيعية. فقد أراد المالكي السيطرة على قواته العراقية أول مرة، وأتاح بترايوس له ذلك، لكننا «أخذنا زمام المبادرة في معظم الحالات»، وفشل قادة العمليات التكتيكية العراقيون في أغلب الأحوال تقريباً.

«يجب أن نكون متفائلين لكن بحذر، ونبتعد عن الموقف الانتصاري. لقد قللنا على الدوام من قوة هذه العدو»، كما قال كين. وسيتطلب الأمر مدة تراوح بين 12-18 شهراً للشعور بالتأثير الكامل لزيادة عدد القوات والإستراتيجية الجديدة لتأمين السكان. وأي حكم على النتائج في مدة ستة أشهر سيكون «سخيفاً»، كما أبلغ نائب الرئيس.

أضاف كين: «حال السفارة لا ترضي». وبرأيه، تشبه السفارة في سنغافورة أو باريس، من ناحية مدى التزامها بالحرب.

«أنتم بحاجة إلى الامتناع عن توقع تحقيق النجاح في الصيف ثم البدء بالانسحاب بحلول نهاية السنة. إنها وصفة للكارثة في عام 2008. وما يحدث أننا نبدأ بالانزلاق تدريجياً إلى مستويات العنف التي شهدها عام 2006». الجميع بحاجة إلى الاتفاق: «القيادة المركزية، ووزارة الدفاع، وهيئة الأركان المشتركة، ووزارة الخارجية، وجهود الوكالات المشتركة، ومجلس الأمن القومي».

وقال إن الوزير غيتس وغيره في البنتاغون ليسوا على اتفاق مع بترايوس.

سأل تشيني: «ماذا تعني؟».

أجاب كين: انظر إلى تعليقات غيتس الأخيرة حول رغبته بالانسحاب بحلول نهاية السنة. فقد قال غيتس في أثناء جلسة استماع عقدت أخيراً أمام لجنة الخدمات المسلحة إنه يأمل، إذا نجحت خطة تهدئة العنف في بغداد وبدأ العراقيون القيام بواجباتهم، «أن يبدأ انسحاب جنودنا في أواخر هذه السنة» [9].

أضاف كين: «هذه إشارة برأيي على أنه لم يعتنق حقاً هذه السياسة. فمن وجهة نظر عسكرية، يجب أن تُعزَّز هذه الخطة في عام 2008. لدينا لواءان إضافيان، فلماذا يمهد الوزير السبيل لأمر إلا إذا كان موافقاً عليه؟».

كان كين في نظر تشيني شخصاً نافذاً وفذاً: جندياً خبيراً متمرساً حافظ على صلات وثيقة بالبنتاغون، وليست لديه مصلحة شخصية، وكان معلماً وناصحاً لبترايوس، وصريحاً، ودقيقاً، ويهتم بالأمور الجوهرية المهمة، ويستحق الانتباه، ويسهل فهم أفكاره، فضلاً على أنه لا يضخم التوقعات والآمال ولا يضيع وقت تشيني سدى.

أبلغ جون هانا، نائب تشيني، كين فيما بعد أن نائب الرئيس نقل تقريره إلى الرئيس.

في العراق، كان في ذهن بترايوس «فكرة عظيمة» أخرى.

سأل معاونيه: من هو العدو؟ فهم يقاتلون القاعدة، والمتمردين، والمتطرفين الشيعة والسنة على حد سواء. إلا أن من الممكن التصالح مع بعض هؤلاء، في حين يجب اعتقال بعضهم الآخر، أو قتلهم، أو طردهم. لكن السؤال هو: كيف يمكن تحديدهم. الجواب يتطلب معلومات استخبارية دقيقة لتحديد من الذين يمكن كسبهم إلى جانبنا ومن لا يمكن –الذين يمكن التصالح معهم والذين يتعذر التصالح معهم.

طلب من محلليه رسم أشكال توضيحية ومخططات بيانية. من الواضح استحالة التصالح مع القاعدة. لكن ماذا عن ألوية ثورة العشرين، وهي جماعة متمردة سنية حملت اسم انتفاضة تفجرت ضد البريطانيين في أعقاب الحرب العالمية الأولى؟ وماذا عن مختلف عناصر جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر؟ أي أفراد أو جماعات يمكن تفتيتها وتقسيمها؟

قال بترايوس لمعاونيه: «هذا ما يجب أن يشغلنا». أحضر أيضاً ديريك هاريفي، محلل استخبارات وزارة الدفاع، الذي سيرفع تقاريره إليه مباشرة.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ستة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Presidential Documents, January 11, 2007, pp. 25-30 (Vol. 43, No. 2), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no2.html

2- «Hearing of the Senate Armed Services Committee; Subject: Nomination of Lieutenant General David H. Petraeus, U.S. Army, to Be General and

Commander, Multinational Forces Iraq,» Federal News Service, January 23, 2007, ww.fnsg.com.

U.S. Senate Roll Call Votes, 110th Congress, 1st Session, January 26, 2007, -3 www.senate.gov

Hearing of the Senate Armed Services Committee; Subject: Nomination» -4 of Admiral William Fallon for Appointment to Grade of Admiral and to Be Commander, U.S. Central Command,» Federal News Service, January 30, 2007, www.fnsg.com.

General David Petraeus's change of command remarks, MNF-1 change of -5 command, February 10, 2007, www.mnf-iraq.com.

Commanding General's Letter to the Troops for February, February 9, 2007, -6 www.mnf-iraq.com

Presidential Documents, February 19, 2007, pp. 182-183 (Vol. 43, No. 8), -7 www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no8.html

Press Release.»President Delivers Commencement Address at the United States -8 Military Academy at West Point,» May 27, 2006, www.whitehouse.gov.

Hearing of the Senate Armed Services Committee; Subject: Defense» -9 Department Fiscal Year 2008 Budget and Fiscal Year 2007 Supplemental,» Federal News Service, February 6, 2007, www.fnsg.com.

-33-

في ربيع تلك السنة، حضر الأدميرال فالون اجتماعاً في البيت الأبيض حول إيران.

قال فالون: «أعتقد أننا بحاجة إلى القيام بشيء لمواجهة هؤلاء». فالعراق يشترك مع إيران بحدود تمتد مسافة 900 ميل، وهو بحاجة إلى المشورة والإرشاد، وإستراتيجية للتعامل مع الإيرانيين.

قال بوش: «حسناً، هؤلاء حمقى وأنذال».

دهش فالون. فوصفهم بـ«الحمقى والأنذال» لا يعد إستراتيجية. نطق الحاضرون كثيراً من الكلمات والأفكار، خصوصاً عن الزعماء الإيرانيين. فهم يتصفون بالسوء والشر وصلتهم مقطوعة بشعبهم. لكن لم يقدم أحد مقاربة حقيقية. ولم يرد أحد الانخراط في مواجهة دبلوماسية.

سألت فيما بعد الرئيس عن الموضوع، وأصر على أنه كان واضحاً فيما يتعلق بالسياسة تجاه إيران. قال لي: «كانت إستراتيجيتنا تقوم على محاولة إقناعهم أولاً بالتخلي عن طموحاتهم في مجال الأسلحة النووية، وهذا يعني تعليق برنامجهم للتخصيب. وإذا كانوا على استعداد للقيام بذلك، يمكنهم الجلوس إلى الطاولة. وسنكون هناك مع شركائنا الآخرين. ثانياً، مواجهتهم وصدهم عن محاولة ترويج نمط الحكم الخاص بهم، أولاً، عبر إقامة دولة فلسطينية، وثانياً، عبر مساعدة الديمقراطية الفتية في لبنان، وثالثاً، عبر النجاح في العراق. وكنت واضحاً تماماً ومنذ البداية حول إستراتيجيتنا وأهدافنا».

حاول فالون حل المشكلة مع المسؤولين الآخرين في البيت الأبيض والبنتاغون. لكن في كل مرة يحاول فيها إثارة القضية، ويقدم الحجة على تعذر حل مشكلة العراق دون مشاركة جيرانه الآخرين، مثل إيران، تكون ردة الفعل سلبية.

كانوا يقولون له: «دعك من هذه المسألة».

قال لبعض من معاوني هادلي وغيتس: «هراء. يجب التصدي لها؛ لأنني لن أتمكن من أداء وظيفتي إلا إذا واجهت هؤلاء».

الشيء ذاته ينطبق على السوريين. شرح قائلاً إنه حين ذهب لرؤية الزعماء الآخرين في الشرق الأوسط، وجد أن كلاً منهم يتناول الموضوع نفسه بتنويعات مختلفة: «لقد بدأتم هذه الحرب الملعونة، ولم تكن لديكم أدنى فكرة عن الجحيم التي ستحاصركم. انظروا إلى ما فعلتم، والفوضى التي نعيش فيها الآن، فما أنتم فاعلون لحل هذه المشكلة؟».

أظهر كثيرون في السر، ومنهم غيتس نفسه، مشاعر القلق من فالون.

أبلغ فالون غيتس: «إذا أرادوا أن يشغلوا وقتهم كله بالقلق مني، وما أقوله وما أفعله، بدلاً من محاولة التفكير بما يجب على هذا البلد [الولايات المتحدة] أن يفعله، فأظن أنني لا أصلح لهذا المنصب. ربما ارتكب أحد خطأ فادحاً حين قرر وضعي فيه».

سافر بترايوس إلى كل منطقة في العراق. وسعى للحصول على المدخلات من الجنرالات والجنود. سار في الشوارع، وزار الأحياء التي أجبر سكانها على النزوح، وعرف كيف تغيرت الحال من سيئ إلى أسوأ. وجمع بواسطة البريد الإلكتروني والاتصالات الهاتفية فريقاً خاصاً به ليأتي إلى العراق ويدرس الوضع فيه دراسة متعمقة.

وكل إلى الكولونيل مكماستر، مهندس الحملة الناجحة في تل عفر، مهمة قيادة الجهود. وتمثلت المهمة بتجميع أهم العقول المدنية والعسكرية وأذكاها لتقويم إستراتيجية التحالف الراهنة، وتقرير الطريقة المثلى لتغييرها. وستُعرف المجموعة باسم فريق التقويم الإستراتيجي المشترك.

بحلول أوائل آذار، جمع بترايوس ومكماستر فريقاً مؤلفاً من قرابة عشرين فرداً، من بينهم اقتصاديون، وخبراء في مكافحة التمرد، وعلماء وباحثون في الشأن العراقي، وضباط، ودبلوماسيون [1]. عرف بترايوس أن كثيراً منهم يتمتعون بأهمية حاسمة

للجهود في العراق. شعر بالرضا عن ذلك كله. فبإمكانه تحمل الناس الذين يقولون إن الإمبراطور دون ثياب، طالما يساعدون في العثور على حل للمشكلة.

التقت المجموعة في القاعة الرئيسة لأحد القصور السابقة في المنطقة الخضراء. في مركز القاعة، رزحت طاولة تحت حمل كدس ثقيل من الأوراق ارتفاعه عدة أقدام. كانت الوثائق –وغالبيتها سرية– تتناول كل جانب من جوانب الحرب. وشملت لائحة القراءة خطط الحملة الراهنة، والتقويمات الشخصية للسياسيين العراقيين، والإحصائيات المتعلقة بالعنف، والخدمات الحكومية، والقدرة المؤسسية. وغاص أعضاء فريق التقويم في جبل من الأوراق والوثائق، وانقسموا إلى فرق أصغر، توجه أحدها إلى المناطق الكردية ومحافظة نينوى، في حين اتجهت الأخرى إلى كركوك وتكريت وبعقوبة وغرب الأنبار، واتجهت مجموعة إلى البصرة في الجنوب والمحافظات المجاورة، وجالت أخرى في بغداد. واستغل أعضاء آخرون صلاتهم العراقية العديدة لمحاولة جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات.

في قاعة القصر الرئيسة، أوجز أعضاء المجموعة المعلومات لبعضهم بعضاً. تبين أن الحكومة العراقية في حالة أسوأ من الفوضى والتشتت مقارنة بتوقعاتهم السابقة. ومستويات العنف مازالت مرتفعة إلى حد مقلق. والإستراتيجية الأمريكية التي سعى إليها كيسي حتى آخر يوم في منصبه –تدريب العراقيين والانسحاب بأسرع وقت ممكن– جعلت الوضع الأمني أشد ضعفاً وهشاشة.

في الوقت الحاضر، «تندفع الولايات المتحدة نحو الفشل» كما قرر فريق التقويم.

وبعد أسابيع من العمل مدة تراوح بين 14-20 ساعة في اليوم، استنتج الفريق أن الصراع تحول في الجوهر إلى معركة في سبيل السلطة والبقاء. والسؤال المهم طرحه هادلي قبل شهور: هل يعد السعي نحو تحقيق المصالحة مهمة عبثية؟

أوصى الفريق بأن يطالب مسؤولو التحالف الوزارات العراقية بالشفافية ويصروا على ضرورة إنفاق ميزانياتها، وهذا لم تفعله عام 2006. وأوصى بما دعاه بعضهم «إستراتيجية أعمدة الكهرباء»، التي تعني أساساً أن يعمل الأمريكيون على تعنيف

المسؤولين العراقيين الفاسدين والعاجزين وفضحهم وتوبيخهم أمام الملأ، وتوضيح أنهم طردوا من مناصبهم بسبب ميولهم الطائفية؛ ليكونوا عبرة تؤكد أن مثل هذا السلوك لا يمكن تحمله أو التساهل معه.

عسكرياً، تمثلت المهمة الرئيسة في توفير الأمن للسكان على المستوى المحلي، عبر توسيع «المحطات الأمنية المشتركة»، وتعزيز المخافر الأمامية بواسطة قوات الجيش والشرطة العراقية والقوات الأمريكية. كان بترايوس ومرؤوسوه مغرمين بالقول: «لا توجد مواصلات –ذهاباً وإياباً– إلى ساحة القتال» (أي يجب على الجنود المقاتلين عدم مغادرتها).

ثمة تركيز أيضاً على تهيئة الشروط المناسبة لإعادة البناء وإعادة تنشيط الاقتصاد، وجلب مقتدى الصدر إلى مائدة المفاوضات، وتحديد الأعداء الذين يستحيل التصالح معهم والقضاء عليهم، والعمل على تبني سياسة الاستيعاب على المستويين المحلي والوطني. شمل التقرير أكثر من مئة صفحة، وسيصبح أساس خطة حملة بترايوس الجديدة وأفضل أمل للإنقاذ وتحقيق شيء من النجاح في العراق.

حل الأدميرال فالون محل الجنرال أبي زيد في القيادة المركزية في السادس عشر من آذار. وقال لمعاونيه وفريقه في أصيل ذلك اليوم: «سوف نبدأ على الفور». وكان أول الأسئلة التي طرحها هو: ما مهمتنا؟ قرأ بيان المهمة فكاد يغص. كان البيان مغالياً في التشديد على الأساليب التكتيكية. وقال إن المفترض بالقيادة المركزية، التي يمتد نشاطها من الشرق الأوسط إلى القرن الإفريقي، أن تكون قيادة إستراتيجية تتناول الأفكار الكبرى. «نحن بحاجة إلى إعادة كتابة بيان المهمة، إذ لا يمكن أن يكون لدينا عشر أولويات؛ فهذا يعني تشتيت الجهود والتركيز» كما قال.

قسم كبار المساعدين إلى مجموعات صغيرة للتفكير والتحاور والتناقش مدة ساعة. وحين استدعاهم قال: «الآن، دعونا نرى هل نستطيع التعبير عما يقوله الجميع». الأمر واضح لا لبس فيه. «هناك منزلان يحترقان. ولهب الحريق ساطع وهّاج». سيمثل العراق وأفغانستان قمة الأولويات.

سأل فالون عن حجم العاملين في القيادة المركزية: «كم عدد الموظفين هنا؟».

ذكر أحد مساعديه أن العدد يبلغ بالضبط 3415.

أجاب فالون: «لا بد أنك تهزأ بي. أعطني تفصيلاً عنهم. كم عدد العاملين في مفرزة الأمن الشخصي المخصصة لي؟».

أجاب عدد من المساعدين: 53، 49، 60 تقريباً.

قال: «حسناً، لنأخذ الرقم الأصغر. تسعة وأربعون شخصاً في مفرزة الأمن الشخصي، لماذا؟».

قالوا له إن العادة جرت على هذا النحو.

أمر فالون: «أريد التفاصيل المتعلقة بكل واحد منهم: ماذا يفعل، ومن أين أتى».

كان العشرات منهم من الاحتياط الذين جندوا لحماية القائد.

«نخوض حربين اثنتين، ويوجد هنا ثلاثون رجلاً جندوا منذ سنوات لحمايتي؟! هذا هراء. كان لدي رجل واحد في المحيط الهادي. تخلصوا منهم. الآن».

قال معاونوه سوف تذهب إلى مناطق الحروب وستحتاج إلى حماية.

قال: «حين أذهب إلى العراق سيكون بترايوس أفضل من يوفر الحماية لي». وفي أفغانستان أيضاً سيوفر قادته الحماية له. وطلب منهم تخفيض العدد إلى 12.

قالوا إن الحماية يجب أن تغطي نائبه، وزوجته، ومنزله.

يقع مركز القيادة في قاعدة ماكديل الجوية في تامبا ضمن مجمع صغير محاط بحاجز، ويقع خلفه كوخ للحراسة –داخل قاعدة تتمتع بحراسة أمنية مشددة عند رأس شبه الجزيرة.

قال فالون عن الحارس: «لا أريد أحداً. أخرجوه من هنا».

شاهد سيارتين سوداوين رباعيتي الدفع تصطفان في موقف مبنى قيادته وتسدان المدخل الأمامي. فسأل: «بحق الجحيم، ماذا تفعل السيارتان هنا؟!». أجابوا إنهما

جزء من أجهزة فريقه الأمني ومعداته. فعليه أن يركب سيارة ليقطع المسافة البالغة نصف ميل إلى مقر القيادة. «تخلصوا منهما أيضاً، واجلبوا سيارة ركاب عادية أستطيع الجلوس فيها».

هل يريدها مصفحة؟

«لا».

اعتقد فالون أنه يشهد ميراث التجنيد الإجباري أو تركته الذي طبق حين دخل الخدمة عام 1967. فبالنسبة إلى الجيش كانت العمالة مجانية، والعاملون متوافرون وتحت الطلب، ولم تغير المؤسسة العسكرية طرائقها في استخدام القوات بطيش وتهور ودون فاعلية، كأنما هناك مورد لا ينضب منها.

شعرت رئيسة مجلس النواب نانسي بيلوسي أن الديمقراطيين، مع الأغلبية الجديدة التي يتمتعون بها في مجلسي النواب والشيوخ كليهما، سوف يتمكنون من فرض تخفيض على عدد القوات الأمريكية في العراق. ورأت في الزيادة محاولة من جانب الرئيس لإيقاع الفوضى في الحركة المناهضة للحرب وتشتيت جهود الديمقراطيين. وعرفت أن بوش أمر بزيادة عدد الجنود أربع مرات على الأقل منذ عام 2004 (20 ألفاً أو أكثر في كل مرة) لتعزيز الأمن في أثناء الانتخابات العراقية في أغلب الحالات. في إحدى المرات أرسلت القوات الإضافية بين شهري أيار وتشرين الأول من عام 2006، حين تفجر العنف إلى حد الخروج عن السيطرة تقريباً، فلماذا تكون هذه الزيادة مختلفة؟ طرحت السؤال مباشرة على الرئيس في الأيام الأولى لرئاستها المجلس.

قالت له: «السيد الرئيس، أرسلنا قوات إضافية من قبل»، وأوردت شواهد موجزة. «فما الذي يجعلك تظن أن هذه الزيادة ستحقق النجاح؟».

أجاب بوش: «لأنني أمرت الجنود بضرورة تحقيق النجاح».

قالت: «حسناً، لماذا لم تأمرهم في المرات السابقة؟».

فيما بعد، أبلغت بيلوسي أقرب مساعديها: «أنا قلقة جداً جداً من الحالة الذهنية لهذا الشخص الذي قرر متابعة خوض الحرب دون دعم من عامة الشعب». ففي أوائل عام 2007، أظهرت استطلاعات الرأي أن ثلثي الأمريكيين لا يعتقدون أن الحرب تسير على ما يرام، في حين لم يزد عدد الذين اعتقدوا خلاف ذلك على 30%.

كان من المقرر أن يتحدث بوش وبيلوسي في مراسم احتفالية تقام في مبنى الكابيتول يوم الخميس التاسع والعشرين من آذار 2007؛ تخليداً لذكرى طياري توسكيغي في الحرب العالمية الثانية. وقبيل المناسبة، التقى الرئيس ورئيسة المجلس على انفراد في مكتب بيلوسي.

قالت: «السيد الرئيس، من واجبنا أمام الرأي العام محاولة التوصل إلى نوع من الإجماع». كانت على قناعة بأن عامة الأمريكيين يريدون من الرئيس والكونغرس التوصل معاً إلى حل، وعلى استعداد لدعم تشريع قانون لا يطالب بتخفيض عدد القوات، والاكتفاء بجعل ذلك مجرد هدف.

أجاب بوش: «آرائي معروفة تماماً. لقد عبرت عنها بكل وضوح».

قالت بيلوسي: «آرائي معروفة أيضاً. لكن النقطة ليست هنا. المهم أن من واجبنا أمام الرأي العام محاولة العثور على نوع من الأرضية المشتركة».

لم يبد بوش أي اهتمام.

أبلغني الرئيس فيما بعد في مقابلة شخصية أنه لا يتذكر اقتراح بيلوسي بالعثور على أرضية مشتركة بعد قراره زيادة عدد القوات. «القرار أثار اضطراباً في الكونغرس. وكان كثير من الحزبين كليهما يأملون أن أسحب الجنود بدلاً من إرسال مزيد منهم. وما إن تلتزم بزيادة عدد الجنود، تصبح الأرضية المشتركة، من وجهة نظري، تمويل الزيادة وضمان أن يحصل الجنود على ما يحتاجون إليه لتحقيق النجاح» [2].

قام فالون بأول رحلة إلى العراق بصفته قائد القيادة المركزية، وبعد ذلك، طلب كين من بترايوس إعلامه بما حدث في اجتماعهما الأول.

قال بترايوس دون حماس: «سار على ما يرام».

قال كين: «اللعنة! هيا، قل لي، ماذا حدث؟».

قال بترايوس: «أعرف أنك تحب هذا الرجل. لكن سأقول لك يا سيدي إنه بالغ في إلقاء الخطب حين كان هنا». فقد ذكره بنظام مكبرات الصوت في إحدى سفن البحرية حيث يقول القبطان عبره: الآن، اسمعوا هذا». كان لدى فالون الكثير ليقوله -ما هو الخطأ في العراق، وكيف نصححه- لكن «ليست لديه خبرة».

أمل كين أن يحمي فالون ظهر بترايوس في واشنطن. إذ إن كل قائد في زمن الحرب بحاجة إلى مؤيد له يؤثر في السلطة التنفيذية، في الكونغرس ووسائل الإعلام. لكن بدلاً من المدافع والراعي والحامي، بدا وكأن بترايوس يواجه مشكلة أخرى.

في يوم الجمعة السادس من نيسان 2007، أقام غيتس حفل وداع صغيراً في مكتبه للجنرال شوميكر، الذي سيتقاعد من منصب رئيس هيئة أركان الجيش. قبل شوميكر مغادرة المنصب قبل بضعة شهور من الموعد المحدد لكي يحل كيسي محله. فوفقاً لقوانين الجيش وأنظمته السارية، يجب وضع كيسي، إذا لم يتوافر شاغر لجنرال بأربع نجوم، في منصب أقل رتبة، وهذا تخفيض غير مقبول في الرتبة والمكانة لقائد القوات في العراق، بعد أن ظل الرئيس يهيل المديح عليه طوال ثلاثين شهراً. دعا غيتس بعض رؤساء أركان الجيش السابقين، ومنهم الجنرال المتقاعد غوردون سوليفان، والجنرال المتقاعد إيريك شينسكي الذي سبب موجة من الاضطراب والإثارة حين أعلن على الملأ أن عدد الجنود الأمريكيين في العراق غير كاف.

سأل غيتس شوميكر، الذي استدعاه رمسفيلد وتشيني من التقاعد لتولي منصب هيئة أركان الجيش عام 2003، هل يريد أن يقول شيئاً؟

قال: «أنا فخور جداً بما فعلناه في الجيش». فوفقاً لحساباته، أظهرت توقعات البنتاغون ثماني مرات في أثناء عمله في المنصب أن عدد الجنود في العراق سوف ينخفض، وفي

كل مرة بقي العدد ثابتاً نسبياً. وشعر بالفخر لأن الجيش أدى واجباته على الرغم من الافتراضات المتكررة بفشله.

وأضاف: «دعني أخبرك أنني أشعر بخيبة أمل مريرة فيما يتعلق بتجربتي في دوائر واشنطن. وعلي إبلاغك أن هذه المدينة، بالنسبة إلي، حاشدة بالأقزام». هناك الكثير من التفكير التكتيكي لحل المشكلات السياسية كما قال، لكن التفكير الإستراتيجي البعيد المدى غائب تماماً. والمشكلة الرئيسة أن كثيراً من المسؤولين في واشنطن لم يفهموا قط عقلية المحارب، والمعنى العميق الكامن في صميم رفض الاستسلام، واحتلال موقع تفضل الموت على تركه. لقد اعتقد كثيرون أن الصراع هو ما يحدث في مجلس الشيوخ أو في البيت الأبيض. لكن الصراع الحقيقي هو الصراع من أجل البقاء المادي.

بدا أن رؤساء الأركان السابقين فوجئوا قليلاً بخطابه، لكن عند نهاية الطاولة كان غيتس يبتسم ويومئ رأسه موافقاً.

بعد أربعة أيام حل كيسي محل شوميكر، وفي يومه الأول في المنصب الجديد دعي إلى إيجاز في مكتب غيتس. سوف تمدد مناوبة أفراد الجيش في العراق وأفغانستان من اثني عشر شهراً إلى خمسة عشر، ويجب نشر خمسة ألوية عاملة من الجيش دون قضاء إجازة سنة كاملة في الوطن. تلك هي الطريقة الوحيدة لزيادة عدد القوات، مثلما أعلن الرئيس.

حذر الجنرال بيت تشياريللي، الذي أصبح الآن كبير المساعدين العسكريين لوزير الدفاع، حذر غيتس قائلاً إن من الضروري فعل شيء لتمديد مناوبة القوات في العراق.

قال: «إذا أردنا الحفاظ على عشرين لواء في العراق حتى نهاية الصيف، يجب تمديد مناوبة خمسة ألوية بين الوقت الراهن وشهر تموز. ويمكننا الآن أيضاً القيام بذلك بحسب طريقتنا السابقة ونستطيع إعلان التمديد بالتدريج. وسوف تأتي الأخبار السيئة كل شهر على مدى خمسة شهور مزعجة» مع إعلان التمديد كل مرة.

أو يمكن فعل ذلك على الفور عبر إعلان مناوبات شاملة مدتها خمسة عشر شهراً. قال تشياريللي إن الجنود في العراق فهموا الوضع، وإن من الأفضل لوزير الدفاع أن يقر به ويعلن التمديد ليوفر نوعاً من القابلية للتوقع.

قال: «الفتيان كلهم هناك يعرفون هذا. ويفهمون الحسبة ويعتقدون أنك أحمق لعدم إعلان الحقيقة».

سارع غيتس والجنرال بيس إلى الموافقة على التوصية وقالا إنهما ذاهبان إلى البيت الأبيض للحصول على مصادقة الرئيس. فوجئ كيسي بالاستعجال. فسياسة المناوبة في الجيش تقع تحت مسؤولية رئيس هيئة أركان الجيش. ولو لم يكن في يومه الأول من الوظيفة لقال: «انتظروا لحظة، ليس ثمة حاجة إلى الاستعجال». لكن هناك تسريبات إلى وسائل الإعلام والأخبار عن السياسة الجديدة، وقرر غيتس المضي قدماً وإعلانها.

في الساعة الثالثة من عصر اليوم اللاحق، ظهر غيتس وبيس في قاعة المؤتمرات الصحفية في البنتاغون. قال غيتس: «سوف تمدد مناوبات الوحدات كلها هناك» في العراق وأفغانستان «ومناوبات الوحدات التي ستنشر مددت الآن —وسوف تمدد إلى خمسة عشر شهراً» [3].

أخذ الإعلان شوميكر على حين غرة، إذ أتى بعد يوم واحد من تقاعده. لم يستشره أحد. والمشكلة التي أوجزها للرئيس قبل أربعة أشهر، حول عدم وجود قوات كافية لإرسال مزيد من الجنود، جرى التصدي لها دون أن يستشير أحد رئيس هيئة أركان الجيش المغادر والقادم.

قال لزوجته: «لن يطول المقام بهم كثيراً».

ما دعاه فالون «معركة كبرى على الطعام» مع بترايوس، تطورت وتفاقمت طوال ربيع عام 2007.

بدأ يتلقى طلبات إرسال مزيد من القوات من بترايوس، وكان عليه وعلى فريق مساعديه دراستها وتحويلها إلى وزير الدفاع، الذي يجب أن يوافق على كل عملية نشر جديدة للقوات. كانت هناك شكاوى من مساعدي بترايوس مفادها أن مختلف الوحدات في العراق أصبحت أقل عدداً مقارنة بحالها في الماضي. قال فالون: «هناك سبب وراء صغر عددها. إذ يفترض أن تكون أكثر فاعلية».

صب فالون غضبه أيضاً على مساعديه الذين يتعاملون مع الطلبات. قال لهم: «أنتم تضيعون وقتي عندما تطلبون مني أن أقرر—وأنا جنرال بأربع نجوم- هل نزيد خمسة جنود هنا أم خمسة عشر هناك؟ هذا جنون مطبق!». كانوا يسألونه باستمرار الموافقة، أو عدم الموافقة، على طلبات محددة. صاح أخيراً: «توقفوا، توقفوا، توقفوا! أحضروا الطلبات التي تتعاملون معها كلها».

تفحص قائمة الطلبات. قال وهو يقرؤها جهاراً: «ألفان هنا. عشرة هناك. ألف وخمس مئة هنا. خمسون هنا. ستون هناك. هذا جنون. سوف نوقف دمغ هذا الهراء بختم الموافقة».

كان فالون مصمماً على تحدي السبب الموجب لكل طلب لمزيد من الجنود، وعدم إرسال ما يزيد على الحاجة الملحة إلى منطقة الحرب. وفي كل مرة يطالب فيها بترايوس بالمزيد، كان فالون يعترض. قال ذات مرة: «انظر إلى هؤلاء الأفراد الإضافيين. ما الذي يفعلونه؟ لدي دراسة في جيبي فُوِّض جون أبي زيد بإجرائها تقول إن هناك 20 ألفاً من الأفراد الإضافيين على الأرض في العراق الآن».

ظن بترايوس أن العدد لا يتجاوز خمسة آلاف، وهؤلاء يعملون في مجالات الإمداد اللوجستي والتموين.

قرر فالون الرفض عدة مرات، فاعترض بترايوس واحتج. لم يكن يمانع الرفض بحد ذاته، لكنه أراد أن يعلم الجميع أن الطلبات، مهما كانت صغيرة، تقابل بالرفض.

قال بترايوس: «سيدي، نحن بحاجة إلى أن نكون واضحين جداً مع بعضنا بعضاً. إذا أردت أن تقول لي لا، فقل لا. لكن أبلغ عندئذ وزير الدفاع، والرئيس، والشعب الأمريكي أن قائد القوات طلب ولم يحصل على ما طلبه».

أبلغ فالون الجنرال بيس: «بيت، هذا جنون، وأحد الأسباب وراء وضعنا المزري. لدينا هؤلاء كلهم، بما لديهم من تجربة وخبرة وقدرة ذهنية، ومن المفترض أن يتخذوا القرارات العملياتية. وعلى أي شيء يهدرون وقتهم؟ تفاصيل الأفراد. تجارة اللحم. انظر إلى هذه الطلبات كلها».

على حد علم فالون، كان ذلك يستهلك ألف ساعة في بغداد، ومقره في تامبا، وفي واشنطن. قال: «مهمة التفكير الإستراتيجية لا يقوم بها أحد. يعقدون جميعاً شرائط أحذيتهم. أنا أفهم الآن السبب وراء الحال التي نحن فيها. يجب أن يطلق الرصاص علينا عقوبة على هذا كله».

هوامش:

1- شملت المجموعة ديفيد كيلكولين، الخبير الأسترالي في مكافحة التمرد؛ وروبرت ردفورد، السفير الأمريكي في الجزائر؛ ومولي في، الدبلوماسية المتمرسة التي أمضت مدة في العراق؛ وريك وادل، خريج ويست بوينت، الذي حصل على منحة للدراسة في أكسفورد وخدم مدة في مجلس الأمن القومي؛ وويلبر باجاركتاري، الصحفي السابق واللاجئ الألباني من كوسوفو الذي نال شهادة دبلوم من جامعة برينستون؛ والكولونيل مارتي ستانتون، المؤلف والمحارب المتمرس الذي شارك في حرب الخليج الأولى، والبوسنة، وحرب العراق؛ وبي. جيه. ديرمر، طيار المروحيات الحربية السابق الذي عمل في العراق في عامي 2004-2003 لمصلحة وكالة مخابرات الدفاع؛ وستيف بيدل من مجلس العلاقات الخارجية ومعهد بروكينغز؛ وتوبي دودج، الخبير بالشؤون العراقية من لندن؛ والكولونيل جيه. آر. مارتن، الأستاذ في الكلية الحربية وزميل بترايوس القديم على مقاعد الدراسة.

2- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

3- Department News Briefing, April 11, 2007, www.defenselink.mil.

-34-

كان وقتاً مروِّعاً للإدارة، وذلك مع استمرار انحسار التأييد الجمهوري بسرعة، حيث لم يبق سوى حفنة قليلة من الحلفاء الثابتين على موقفهم. لكن لم يبز أحد جون مكين في التأييد العلني. ففي أوائل نيسان 2007، أخذ بترايوس جون مكين (70 سنة)، المرشح الجمهوري للرئاسة، في جولة في سوق الشورجة في بغداد. حومت المروحيات الهجومية في السماء، وحشد أكثر من مئة جندي في عربات همفي المصفحة لتوفير الحماية له ولثلاثة آخرين من أعضاء الكونغرس. وفي مؤتمر صحفي عقد في أعقاب الجولة التي استمرت ساعة، قال مكين إن الرأي العام الأمريكي لا يتلقى «صورة كاملة» عن التحسن في الوضع الأمني. «الأمور تتحسن في العراق، وأشعر بالسرور من التقدم الذي تحقق» [1].

انتُقد مكين فيما بعد انتقاداً شديداً على هذا الحكم بعد جولة في سوق محصن بالجدران والأسوار والحواجز الإسمنتية، ومطوق بشرنقة أمنية فعلية من القوات الأمريكية. وأبلغ أحد المسؤولين العسكريين صحيفة واشنطن بوست أن تحليل مكين للوضع الأمني في بغداد كان «مغالياً قليلاً».

قدرت كوندي رايس تعليقات مكين الإيجابية. ودعته إلى لقاء خاص على انفراد في وزارة الخارجية في الساعة الثامنة والنصف من صباح الثاني عشر من نيسان. بدا مكين متوتراً حين وصل. وتوقعت رايس منه إعادة التوكيد على تفاؤله. وبعد بعض المجاملات الترحيبية، أطلق العنان لنفسه.

«ربما نكون على وشك خسارة الحرب الثانية في حياتي»، كما قال الرجل الذي عذب مدة خمس سنين حين كان أسير حرب في فيتنام. ثم شن السيناتور هجوماً انتقادياً عنيفاً على دور وزارة الخارجية في العراق. إذ إن مسؤوليها برأيه لا يشاركون بكامل قوتهم

وقدرتهم واهتمامهم، ولا يتصرفون وكأنهم في حالة حرب فعلية. القسم المدني لا يقوم بدوره. أصغت رايس بهدوء. فقد رددت انتقاداته أصداء كثير من الانتقادات الموجهة إلى وزارة الخارجية.

قالت رايس أخيراً: «هذا ليس صحيحاً يا جون». ثم أخبرته عن التغييرات المؤسسية التي حدثت، ومنها نظام محسن للشؤون الذاتية (شؤون الأفراد والعاملين) ضَمن إرسال أفضل المؤهلين إلى بغداد، فضلاً على تغيير فرق إعادة الإعمار المؤقتة، التي تقوم الآن كما قالت بنصيبها العادل من العمل في العراق. وامتدحت السفير الجديد، ريان كروكر، إذ يؤلّف هو وأعضاء سفارته فريقاً كفؤاً من الدرجة الأولى، مثلما أصرت.

بعد عشرين دقيقة، خرج الاثنان من مكتب رايس لعقد مؤتمر صحفي والتقاط الصور وتبادل الحديث مع المراسلين.

قالت رايس، حين سئلت عن التفجير الانتحاري ذلك اليوم في «كافتيريا» مبنى البرلمان العراقي في المنطقة الخضراء المحصنة في بغداد: «سنشهد أيام يسر وأيام عسر» [3].

سأل أحد المراسلين: «ما المضامين بالنسبة إلى الوضع الأمني في العراق إجمالاً والزيادة في عدد القوات؟ وكيف تسير الأمور؟».

أجابت إن الهجمات التي يشنها الإرهابيون متوقعة.

قال مكين: «انتظر لحظة. لم نرسل إلى بغداد بعد سوى ثلث الألوية الخمسة». والهجمات الاستعراضية المشهودة مصممة «لإضعاف إرادة الشعب الأمريكي». لكن هناك صورة أكبر كما قال. «نحن نحقق بعض النجاحات الصغيرة نتيجة الإستراتيجية التي يطبقها الجنرال بترايوس والجنرال أوديرنو».

لم يذكر مكين شيئاً عن مخاوفه السرية من حقيقة أن الولايات المتحدة على شفا الخسارة.

في مؤتمر صحفي مع عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين يوم الخميس التاسع عشر من نيسان، قال رئيس الأغلبية في المجلس هاري ريد إنه يعتقد أن «هذه الحرب قد خسرناها وأن الزيادة لا تحقق شيئاً، مثلما أشار العنف المتطرف في العراق يوم أمس» [3].

قارن ريد أيضاً بوش بالرئيس السابق ليندون جونسون، الذي أرسل قبل أربعين عاماً قوات إضافية إلى فيتنام بعد مقتل أربع وعشرين ألفاً من الجنود الأمريكيين. «لم يكن جونسون يريد أن تتضاعف خسائر الحرب، ولذلك أرسل مزيداً من القوات إلى فيتنام. فقتل 34000 جندي إضافة إلى القتلى الـ 24000».

قوبل تصريح ريد بانتقاد واسع من الأصدقاء والمعارضين على حد سواء.

في السر، هاجم كارل ليفين، السيناتور الديمقراطي (عن ولاية ميشيغان) ورئيس لجنة الخدمات المسلحة، زميله، وقال إنه يرفض رسالته وطريقة تقديمها. فهي رسالة مروعة، تضعف الروح المعنوية للجنود. وفيما بعد، أبلغ ريد زملاءه أن ليفين «وبخه توبيخاً عنيفاً».

كتب ريد في مذكراته «المعركة الصائبة» يقول: «هل كان علي اختيار كلماتي بعناية أكبر؟ ربما. لكنني قلتها، وعنيتها، وأنا لا أعتذر عنها» [4].

غضب الرئيس غضباً شديداً لكن لم يعلن غضبه أمام الملأ. سألته فيما بعد: «هل صدمت حين سمعت التصريح؟» [5].

قال بوش: «لم يعد يصدمني شيء في واشنطن. لقد أوجدت هذه الحرب كثيراً من المشاعر القاسية، يصدر عنها كثير من الخطابات الفظة. من إخفاقاتي العجزُ عن تغيير نبرة الخطاب في واشنطن. وهذا فشل الآخرين أيضاً... لكن الخطاب البلاغي خرج أحياناً عن نطاق السيطرة كلياً. ولم يكن قلقي منصباً على ذاتي، أعني اعتدت الأمر. وأنا أفهم تماماً حقيقة أن من يتخذ هذه القرارات، سيتعرض لكثير من الانتقادات الجدية، وأنا أقبل بذلك كله. أنا قلق على الذين يعرضون حياتهم للخطر في سبيل مسعى على درجة لا تصدق من الأهمية فيما يتعلق بتبعاته على المدى البعيد بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والأمن».

«لدينا فتية يلبون النداء ويتطوعون لخوض المعركة؛ لأنهم يؤمنون بالقضية. وعندما يرون إشارات متناقضة تأتي من واشنطن، لا بد أن تتساءل ما الذي يعنيه ذلك لهم. تذكر الأمر الآخر: نحن نتعامل مع ذهنية بالغة الهشاشة في العراق في هذا الوقت

بالذات. شعرت دوماً أن من المهم جداً للعراقيين فهم أن الولايات المتحدة شريك موثوق يمكن الاعتماد عليه».

بحلول الربيع، وتدهور الوضع في العراق أكثر من أي وقت مضى، واجهت إدارة بوش ضغطاً متزايداً من حلفائها في الشرق الأوسط. كانت انتقادات المملكة العربية السعودية، إحدى أكبر الدول المصدرة للبترول إلى الولايات المتحدة وأكثر حلفائها العرب موثوقية ومعولية، خرجت إلى العلن. ففي آذار، انتقد الملك عبد الله (82 سنة) الوجود الأمريكي الضخم في العراق انتقاداً مريراً، ودعاه «احتلالاً أجنبياً غير شرعي» [6]. وفي أواخر نيسان، أرسلت رايس ديفيد ساترفيلد للقاء الملك.

خاضت السعودية والولايات المتحدة معاً حرب الخليج عام 1991؛ لإخراج صدام من الكويت المحتلة. وفي عام 1994، اقترح السعوديون على الرئيس كلينتون شن عمليات سرية أمريكية–سعودية مشتركة لإسقاط صدام. وفي عام 2002، السنة السابقة على غزو العراق، اقترح السعوديون أن ينفق البلدان مليار دولار لإزاحة صدام عن الحكم سراً. وبعد غزو عام 2003، تصورت المملكة العربية السعودية (السنية) دولة عراقية يحكمها رئيس سني قوي لكنه أقل عدوانية من صدام وأكثر استعداداً لرعاية المصالح السعودية. وبدلاً من ذلك كله، تحقق الكابوس السعودي المرعب، وذلك مع قيام حكومة شيعية في العراق وتعاظم تأثير شيعة إيران ونفوذهم.

فهم ساترفيلد سبب قلق الملك السعودي. فقد طارد بلاده شبح «هلال» من الدول الشيعية في الشمال، يمتد من إيران إلى سوريا مروراً بالعراق. كانت إيران تزود المتمردين في العراق بأسلحة فتاكة وترسل أفراداً من قوة القدس، نخبة الحرس الثوري الإيراني. وعرف الأمريكيون ذلك وأعلنوه على الملأ. حاولت الولايات المتحدة مواجهة التورط الإيراني ضمن حدود العراق، لكنها لم تفعل الكثير، أو لم تفعل شيئاً داخل إيران. وهكذا، أخذ الإيرانيون يستفزون أمريكا، ويظهرون أنهم يملكون اليد العليا. وخشي السعوديون، مثل باقي دول الخليج الأخرى، من أن الولايات المتحدة لن تكتفي بالخروج من العراق بل قد تتخلى عن المنطقة بأسرها.

عقد ساترفيلد مع الملك عبد الله اجتماعاً صعباً ومتعباً يوم الأحد الثاني والعشرين من نيسان. لقد سلمت الولايات المتحدة العراق إلى إيران على طبق من ذهب، كما قال الملك. «سمحتم للفرس، للصفويين (حكام فارس الشيعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر) بالاستيلاء على العراق».

حاول ساترفيلد الرد. يمكن للعراق أن يكون دولة قوية مستقلة.

قال الملك: «حذرتكم من ذلك. حذرت الرئيس، ونائب الرئيس، لكن آذانكم كانت صماء. ولست مهتماً بمزيد من النقاش حول هذا الأمر».

فهم ساترفيلد أن الملك لا يمكن أن يتصور دولة شيعية تكون مستقلة عن إيران. وبرأي الملك، لا يوجد ببساطة زعيم وطني شيعي يمكن أن يعمل ضد إيران.

قال ساترفيلد محاولاً طمأنته: «نحن هنا. نحن هنا منذ أكثر من خمسين عاماً. ولن نذهب. وأؤكد لك أن الرئيس ليس ملتزماً بالعراق فقط، بل بالمنطقة كلها. لهذا السبب نحن نطلق رِزَمة من الخطوات». وتُحضر حالياً عقود مبيعات ضخمة من الأسلحة لدول الخليج، ومصر، حتى لإسرائيل. «هذه إشارات دالة على أننا باقون هنا، ولن نخرج من المنطقة».

أوضح الملك أن موضوع عراق يحكمه الشيعة ولا يكون حليفاً لإيران أمر مستحيل ولا يستحق النقاش. وانتهى الاجتماع.

كتب ساترفيلد مذكرة إلى رايس. فرفعتها إلى الرئيس، الذي أرسل تشيني ليتحدث إلى الملك عبد الله. كان تشيني يعد بطلاً في السعودية. ففي عام 1990، حين غزا صدام الكويت وهدد السعودية، أرسل الرئيس بوش الأب وزير دفاعه تشيني إلى السعودية ليقدم وعداً أن الولايات المتحدة ستحمي المملكة –عملية درع الصحراء. وقاد بوش الأب وتشيني التحالف الذي ضم المملكة في حرب الخليج الناجحة عام 1991.

حين وصل تشيني إلى السعودية، سأله الملك عبد الله عن والد الرئيس الحالي، الذي يعد بطلاً في المملكة أيضاً. وفي أثناء اللقاء الذي استمر أربع ساعات، وتضمن حفل غداء

في الثاني عشر من أيار، حاول نائب الرئيس شرح سياسة بوش الابن فيما يتعلق بالعراق. لكنه لم يتمكن من زحزحة السعوديين عن موقفهم. وبكل احترام قال الملك إنه لن يخوض في الموضوع.

قال فالون لبترايوس في ذلك الربيع: «أريد إرسال بعض الأشخاص. أريدهم أن يكونوا مراقبين لا يلاحظهم أحد. أريدهم أن يجمعوا أكبر قدر ممكن من المعلومات. أريدهم أن يطلعوا بقدر الإمكان على كل ما يحدث بحيث يمكننا محاولة تقرير أين يجب أن نكون».

قال بترايوس: «كما تشاء يا سيدي».

رأس فريق فالون الأدميرال جيمس إيه. وينفيلد (الابن) الذي خدم سابقاً مساعداً تنفيذياً لفالون. اعتقد فالون أن وينفيلد أذكى شخص في المؤسسة العسكرية وهو قادر على اختراق الضباب للوصول إلى جوهر أي مشكلة.

تجول وينفيلد في البلد بضعة أسابيع، ووجده بترايوس مغرماً بالسرية. كان يحترمه شخصياً، لكنه لم يخدم في العراق قط، وبدا أنه لم يمنح الوقت الكافي لإجراء مسح للوضع. ولم يعتقد بترايوس أن وينفيلد مؤهل لبناء إستراتيجية جديدة أو إجراء تقويم كامل للحرب على الأرض.

بحلول نهاية مراجعته، استنتج أن هناك عدداً فائضاً من الأفراد العسكريين في العراق، ومغالاة في طلبات إرسال قوات إضافية.

أبلغ بترايوس الأدميرال: «سوف نطلب ما نحتاج إليه إلى أن تتوقف حاجتنا إليه». فقد أرسل إلى هنا ليكسب حرباً. «وإذا أراد أحد أن نسحب القوات، فعليه أن يقول لنا، وعليه أن يقول للعالم كله إنه طلب منا ذلك. هذه هي الطريقة. فإذا كانت المسألة مهمة، يجب أن يعلم بها الشعب الأمريكي».

ذكر وينفيلد في تقريره إلى فالون: «إذا اعتقدت لحظة أن هؤلاء سوف يتطوعون في الإسراع بأي شيء، أو التخلي عن أي شخص، فأنت واهم. هذا لن يحدث. يجب أن يؤمروا من فوق».

في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من نيسان، وافق مجلس النواب بأغلبية ضئيلة على مشروع قانون بتخصيص 114 مليار دولار للإنفاق على الحرب، وطالب القانون بانسحاب الجنود الأمريكيين من العراق بدءاً من أول تشرين الأول. كانت نتيجة التصويت 218 مقابل 208 [7].

قالت رئيسة المجلس بيلوسي: «في الخريف الماضي، صوت الشعب الأمريكي لمصلحة وجهة جديدة في العراق. وأوضح دون لبس ضرورة تقديم كل ما يحتاج إليه جنودنا لأداء مهمتهم، لكن يجب إعادة جنودنا إلى أرض الوطن، بأمان وبسرعة».

بعد يوم، وافق مجلس الشيوخ على مشروع القانون. لكن بوش اعترض عليه.

كان بمقدور بيلوسي جمع الأصوات في مجلس النواب لقانون آخر يطالب بالانسحاب، لكن أنظمة مجلس الشيوخ تتطلب 60 صوتاً لمنع استخدام أسلوب التأجيل التكتيكي في مشروعات قوانين لا تتعلق بالإنفاق، ولم يقترب قط الديمقراطيون في مجلس الشيوخ، الذين لا تزيد أغلبيتهم عن صوت واحد، من الحصول على هذه الأصوات العديدة.

وفي لقاء آخر عقد فيما بعد، ذكرت بيلوسي الرئيس مرة أخرى بأن عامة الأمريكيين يعارضون الحرب. «لقد فقدوا الإيمان والثقة في إدارة الحرب». في هذه المرة لم تتوقع إجابة، ولم تحصل على واحدة.

أبلغت مساعديها: «ثمة خطأ ما هناك». أصرت، وهي الكاثوليكية المؤمنة، أنها تصلي من أجل الرئيس: «أقول هذا مع تعاطف شخصي معه واحترام للمنصب الذي يشغله. وربما أحترم المنصب أكثر مما يحترمه هو... لقد قرر أن يصب جام غضبه على كل من يخالفه الرأي في أي وقت... إنه عنيد، عنيد جداً. ثمة خطأ ما. الأمور لا تسير على ما يرام». وقالت إن المؤرخين سوف يفكرون إلى الأبد في سلوك بوش ويحاولون الإجابة عن هذا السؤال: كيف يمكن لرئيس الولايات المتحدة أن يختطف النوايا الطيبة للشعب الأمريكي ويستغل مخاوفه؟

لم يرق لكثير من الجمهوريين عدم إحراز تقدم بعد مرور ثلاثة أشهر من زيادة القوات. وعلى وجه الخصوص، شعر النائب بيتر هويكسترا (من ميشيغان)، الذي خسر رئاسته

لجنةَ الاستخبارات في مجلس النواب حين فاز الديمقراطيون بالأغلبية في الخريف، شعر بقلق شديد. فقد قام هويكسترا، المتشدد المعروف بجديته وأدائه واجباتِه بكل حماس، بست رحلات إلى العراق. واعتقد أن الحرب الأشمل على الإرهاب لا تنال الانتباه الكافي. وتلقى إهانة في الخريف في أثناء لقاء في البيت الأبيض حين اشتكى أحد زملائه إلى بوش من أن الرئيس لم يطلب أي تضحية من عامة الأمريكيين. أجاب بوش: «ليست التضحية سوى كلمة رمزية تغطي زيادة الضرائب». ولذلك، تحدث هويكسترا في السر مع النائب جون بوهنر، زعيم الجمهوريين في مجلس النواب.

قال: «يوشك الرئيس على خسارة الجمهوريين كلهم في لجنة الاستخبارات». فالجمهوريون التسعة الذين عرفوا أكثر من غيرهم الوضع الحرج في العراق كانوا على وشك القفز من السفينة بسبب قرار زيادة عدد القوات. وسرعان ما دعي التسعة إلى البيت الأبيض لعقد لقاء على انفراد مع بوش. وعبر كثير منهم عن قلق بالغ من الزيادة. من أي أتت؟ وما معناها؟

أصغى بوش وأعطى إجابات صادمة حول الحاجة إلى تحقيق الفوز. واستنتج هويكسترا من قبل أن الحرب كانت خطأ. وشعر أن الرئيس لم يكن يصغي فعلاً إلى أسئلة أعضاء حزبه أو آرائهم.

تعلقت بعض الأسئلة بأسامة بن لادن. لماذا تبدو الولايات المتحدة وكأنها تخلت عن البحث عنه؟

أصر بوش على أن المطاردة مستمرة، وطمأنهم هادلي أن لائحة القضايا التي أثاروها كلها تلقى الاهتمام. لم يهدِّئ اللقاء الذي دام ساعة ونصف الساعة شكوكَ الجمهوريين، لكنه منعهم من القيام بثورة علنية.

هجس في صدر فالون القرار الذي أصدره الكونغرس عام 1975 بقطع التمويل عن حرب فيتنام. وعلى شاكلة كثيرين، ومنهم الرئيس جيرالد فورد، شعر بأن قطع التمويل أجبر الأمريكيين على الانسحاب مبكراً. وخشي فالون الآن من «أن نكرر ما حصل في فيتنام

في السبعينيات، حين كنا بالفعل في وضع جيد تكتيكياً، قبل أن يقطع الكونغرس أرجلنا. نحن لا نريد أن نكون في وضع نتخلى فيه عن جهد ثلاث سنوات أو أربع وننسحب». أراد العثور على «موقع يشعر فيه الشعب الأمريكي والكونغرس أننا نبذل أقصى جهد». أراد مهلة لتحقيق نتيجة معقولة.

شعر فالون أنه بحاجة إلى تقويم المناخ السياسي في واشنطن. وهذا سيمارس تأثيراً مهماً فيما يمكن أن يفعله في المنطقة عموماً وفي العراق خصوصاً. كان عليه اكتشاف ما يمكن احتماله والتساهل معه سياسياً. عرف أن عليه التعامل مع الكونغرس، واعتقد أن علاقاته جيدة وودية إلى درجة كافية مع الجمهوريين والديمقراطيين بحيث يستطيع معرفة أين يقفون. ولم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يدرك القصة في كابيتول هيل: تلاشى الدعم السياسي للحرب كلياً.

قبيل الساعة الثالثة عصراً من يوم الأربعاء التاسع من أيار 2007، دخل طبيب عراقي في الستين من عمره، له لحية غزاها الشيب وفي ملامحه شبه بالمخرج السينمائي ستيفن سبيلبرغ، إلى الجناح الغربي من البيت الأبيض في زيارة إلى ستيف هادلي. كان موفق الربيعي، مستشار الأمن القومي العراقي، تواقاً إلى لقاء نظيره الأمريكي. لم يسعده توسيع الاجتماع ليضم السفير العراقي في واشنطن ونائب رئيس الوزراء برهم صالح. سأل أحد معاونيه: «من دعا هذين؟ كيف انضما إلى الاجتماع، تحقق من الأمر».

ستيف هادلي هو الذي دعاهما. حضرت اللقاء أيضاً ميغان أوسوليفان.

سألهم هادلي: «ماذا ستفعل الولايات المتحدة والعراق في الأشهر التسعة أو الاثني عشر القادمة لوضع العراق في أفضل موقع ممكن لتجنب انسحاب متعجل للجنود الأمريكيين؟ ما الخطوات التي يجب علينا اتخاذها بحيث لا يبدو أن التحالف يتراجع ولا يبدو أننا تخلينا عن العراق في محنته؟».

«نحن بحاجة إلى خطوات متعينة. ولا نريد أن نلغي التحالف قبل الأوان، أو نسبب انسحاباً متعجلاً. مفتاح النجاح، من وجهة نظر الولايات المتحدة، هو تخفيض حجم

العنف الطائفي. أعرف أننا بحاجة إلى المكان والزمان لاستكمال بناء القوة الأمنية العراقية –بناء قدراتها. يجب أن يستمر العراق في الريادة والنجاح بحيث يتمكن من الحصول على السيادة الحقيقية». مع أن العراق –تقنياً– دولة ذات سيادة منذ عام 2004، إلا أن هادلي كان يعبر عن فكرة معروفة للجميع. فبوجود قرابة 170 ألف جندي أمريكي في العراق الآن، كان العراق أبعد ما يكون عن «السيادة الحقيقية».

تحول هادلي إلى العلاقات السنية–الشيعية، وقال إن عليهم «العثور على أرضية للمصالحة السياسية».

قال صالح ملاحظاً: «لا نملك الإطار السياسي. ولسنا في موقع نحقق منه النجاح. نحن نفتقر إلى مشاركة السنة». لا توجد شخصية وطنية يمكنها أن توحد البلد. «ليس لدينا مانديلا».

«الأشرار يفرضون أجندتهم». وهؤلاء، برأي صالح، هم المتمردون السنة وإرهابيو القاعدة. قال: «هناك حرب بالوكالة». معركة بين القاعدة والولايات المتحدة تجري على التراب العراقي.

قال هادلي: «لدينا أرضية مشتركة واسعة، والكثير من العمل لنقوم به. تأخر الوقت، لكن الوضع الأمني قد تغير، وعلينا أن نأخذ ذلك بالحسبان». كان يشير إلى تصاعد حدة العنف. ثم التفت إلى الربيعي، الذي التقى عدداً من أعضاء الكونغرس، وقال: «ذهابك إلى الكونغرس أمر مفيد. وأنت ترى مدى تفجر الوضع، والاندفاع نحو اليسار فيما يتعلق بالعراق».

وافقه الربيعي الرأي.

قال هادلي: «لا يريد أحد العودة إلى الصفر»، بمعنى سحب الجنود الأمريكيين كلهم. «وعواقب الفشل لا يمكن تصورها. لكن إذا لم نتمكن من التعامل مع الوضع على المدى القريب، فسوف نفشل». وأضاف إن عليهم العمل على خمس قضايا: الميزانية، والدستور، والنفط، واجتثاث البعث، والمصالحة. لقد مثلت ميزانية العراق الوطنية مشكلة هائلة بسبب عدم إنفاق نسبة تراوح بين 25-30% منها، في حين ضخت الولايات المتحدة مليارات

الدولارات في الحرب. وفيما يتعلق بالدستور العراقي، قال: «حسبنا أن العملية الدستورية ستغل ثماراً عظيمة. ونحاول الآن إصلاحها وترقيعها؛ لكن الرقع لا تكفي». كان التقويم محبطاً على الجبهات كافة. وظهرت نبرة سوداوية متشائمة في سؤاله اللاحق: «كيف نسير قدماً؟».

لم يجب أحد.

قال هادلي: «يجب علينا أن نحول التقدم إلى مسرحية. نحن بحاجة إلى حدث درامي. لا أعرف ما هو». نظر إلى صالح والربيعي. «عليكما اكتشافه».

لم يقدم العراقيون الثلاثة أي أفكار.

سأل هادلي: «ميغان، ما الذي أغفلته؟».

قالت أوسوليفان: «يجب علينا تحويل حدث ما إلى مسرحية، حدث درامي».

قال الربيعي: «لا توجد عصا سحرية». كان متيقناً حدوثَ تقدم بحلول الخريف على صعيد الميزانية وقانون للنفط، وتحديد موعد للانتخابات في المحافظات. لكن المالكي نفسه لا يملك القوة الكافية للقيام بذلك كله. قال الربيعي وهو ينظر إلى الأمريكيين: «عليكم اللجوء إلى ليِّ الأذرع» على مستويات الحكومة العراقية كلها.

وأضاف: «التحدي الأكبر هو الوقت. وهم [إرهابيو القاعدة وغيرهم من المتطرفين] قادرون على انتظارنا حتى نفشل». قال أيضاً إن هناك سوء فهم، إذ لا يعد كثير من العراقيين القاعدة وجيش المهدي منظمتين متطرفتين.

أوجدت الجهود التي ركزت على جلب البعثيين السابقين إلى الحكومة مشكلات معقدة. وقال: «استطعنا تحويل البعثيين إلى ضحايا».

قال هادلي: «على المدى الطويل، علينا إعادة نشر قواتنا ووضعها في قواعد إستراتيجية». إذ لا يمكن للوعد بحماية السكان ولا إرسال مزيد من القوات أن يستمران إلى الأبد. «وهذا قد يعني إعادة القوات الأمريكية إلى قواعد عملياتية أمامية». وقال عن عملية الحكم: «عليكم إشراك الخصوم كلهم في الحكومة، والتوصل إلى صيغة ما».

ثم عاد إلى الموضوع الذي جعل أمارات اليأس بادية عليه: «لكن عليكم تحقيق شيء من التقدم الملموس».

قال الربيعي إنهم بحاجة إلى إضافة العفو إلى قائمة القضايا الرئيسة، بمعنى ضرورة منح فرصة للمتمردين وغيرهم من الإرهابيين المناهضين للحكومة لتجنب العقاب أو السجن. «هذا أمر صعب، لكنه ربما يكون ضرورياً. فإذا منحوا العفو، مع مثالبه كلها، فسيفقدون الذرائع والمبررات» لممارسة المعارضة العنيفة. «يجب قبول مخاطرة العفو. بل يجب التفكير في عفو عام غير مشروط».

لم يشعر هادلي بالارتياح للفكرة. قال: «المشكلة أن الأشرار حين تطلق سراحهم سيمارسون أعمال القتل مجدداً».

قال برهم صالح: «أنا لا أؤيد العفو العام غير المشروط».

قال هادلي بدلاً من التحكيم بينهما: «حسناً، ماذا نسينا يا ميغان».

«الشيء الوحيد الذي أود قوله، وأشدد عليه، وأؤكده، هو الحاجة إلى المَسْرَحَة الدرامية». أيدت أوسوليفان زيادة عدد القوات، وشعرت بخيبة الأمل من عدم ظهور أي نتائج حتى الآن.

اتفق الحاضرون، وكأنهم يظهرون مدى فشل توقعاتهم، على أهمية زيارة المالكي للرمادي، التي كانت ذات يوم مركز عنف التمرد وتحولت الآن إلى مدينة هادئة مسالمة. لكن يجب على المالكي القيام بكثير من مثل هذه الزيارات. واقترح أحدهم أن يزور رئيس الوزراء مدينة القائم في محافظة الأنبار في أقصى الجزء الغربي من العراق.

قال هادلي: «أجل، اطلبوا من رئيس الوزراء زيارة القائم، وستكون خطوة عظيمة».

طلب الربيعي لقاء وجيزاً مع هادلي على انفراد. وحين أصبحا وحدهما، قال إن لديه خبراً مدهشاً. لقد أمضى ثلاث ساعات قبل عدة أيام في القاهرة مع رئيس المخابرات المصرية عمر سليمان. وعرف أن مصر متورطة في عمل سري لمحاولة تغيير الحكومة العراقية عبر إسقاط المالكي، كما قال الربيعي.

قال هادلي: «حسناً، سوف آخذ الخبر على محمل الجد».

فيما بعد، تلقى المصريون تحذيراً من مغبة التدخل في شؤون العراق الداخلية.

* * *

في ظهيرة الرابع عشر من أيار 2007، أرسلت مذكرة سرية إلى الرئيس:

«قتل جنديان أمريكيان وجرح أربعة في هجوم بالأسلحة الخفيفة...

قتل جندي من مشاة البحرية برصاص قناص في الفلوجة...

قتل جندي أمريكي وجرح اثنان في هجوم بعبوة محلية الصنع في بغداد...

فضلاً على ذلك كله، قتل جندي أمريكي وجرح أربعة في هجوم بالقذائف الصاروخية والعبوات الناسفة المحلية الصنع في بغداد.

أخيراً، قتل جندي دنمركي وجرح ستة في هجوم بالأسلحة الخفيفة في البصرة».

قالت المذكرة الموجزة إن جماعة تابعة للقاعدة تدعى «دولة العراق الإسلامية» أصدرت بياناً عن ثلاثة جنود أمريكيين مفقودين: «جنودكم في قبضتنا. فإذا أردتم أن يكونوا بأمان لا تبحثوا عنهم».

أبلغت المذكرة السرية اليومية التي توجز آخر أخبار العراق لبوش أن أربعة آلاف جندي أمريكي يبحثون عن الجنود المفقودين. أما المخطط البياني للخسائر فأشار إلى ما يأتي:

«عدد القتلى (في الأعمال الحربية): 2755.

عدد الجرحى: 25389».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع عشرة من المصادر المطلعة

1- انظر:

Kirk Semple, «McCain Wrong on Iraq Security, Merchants Says,» The New York times, April 3, 2007, p. A1; "Briefing By Senator John McCain (R-AZ), Representative Mike Pence (R-IN), Representative Rick Renzi (R-AZ); Topic: Their Visit to Iraq," Federal News Service, April 2, 2007, www.fnsg.com; Sudarsan Raghavan, "Sum of Death Statistics: A Perilous Iraq; Merchants, U.S. Officials Take Issue with McCain's Remarks on Security Gains," The Washington Post, April 4, 2007, p. A49.

2- Remarks with Senator John McCain After Their Meeting,» State Department» transcripts, April 12, 2007, www.stste.gov.

3- Senate Democrats Hold a News Conference on Iraq,» Congressional Quarterly» Transcriptions, April 19, 2007, accessed via Nexis.

4- Harry Reid, The Good Fight (New York: G. P. Putnam's Sons), p. 20.

5- مقابلة مع الرئيس جورج بوش، 2008./5/21

6- Glenn Kessler and Karen DeYoung, «Saudis Publicly Get Tough with U.S.; King's Remarks on Iraq Follow Signs Riyadh Is Distancing Itself from Bush, «The Washington Post, March 30, 2007, P. A14.

7- Carl Hulse and Jeff Zeleny, «House Approves War Spending Measure that Requires U.S. to Start Pullout from Iraq,» The New York Times, April 26, 2007, P. 12.

-35-

في أيار، ذهب كين إلى العراق لقضاء أحد عشر يوماً آخر لمراقبة الوضع على الأرض. وفي الخامس والعشرين منه قدم تقريره إلى تشيني.

قال: «هناك تغير مهم في الزخم». فقد أمضى معظم وقته في أحياء بغداد. «سوف تزيد الخسائر مع استمرارنا في الدخول إلى مناطق لم ندخلها من قبل. مازالت العبوات الناسفة المحلية الصنع تمثل 75% من الأسلحة المستخدمة ضدنا». ويمكن للعبوات الناسفة المحلية الصنع والقذائف الصاروخية المتفجرة المتقدمة التي زود بها الإيرانيون حلفاءهم أن تخترق العربات المصفحة الأمريكية كلها، وهي قادرة على قتل من فيها جميعهم. «صحيح أن معدل استخدام العبوات الناسفة المحلية الصنع قد انخفض، إلا أن قدرتها على الفتك قد زادت».

ألح كين قائلاً: «نحن بحاجة إلى الوقت هنا. ويجب الانتظار إلى عام 2008 حتى تتاح للعمليات فرصة من النجاح».

أبلغ كين تشيني أن الجنود الأمريكيين في العراق مثاليون. وحين غير الرئيس المهمة، وغير الإستراتيجية، وغير القادة، وطلب منهم ركوب مزيد من المخاطرة، استجابوا له. فالقوات ملتزمة، وروحها المعنوية بقيت مرتفعة. قال: «يحبون اتخاذ موقف الهجوم، ويعتقدون أنهم زودوا بمستلزمات الفوز، لكن التسريبات الأخيرة سحبت البساط من تحت أقدامهم؛ وهذا محبط جداً».

قال تشيني إن بترايوس وأوديرنو تحدثا أخيراً إلى الرئيس عن ذلك. «عقد بترايوس حديثاً اجتماعاً مع الرئيس عبر نظام الفيديو الآمن، وقال إنه يتساءل متعجباً مع راي عما يحدث». وأضاف إن الرئيس أبلغهما أنه ملتزم كلياً بالمهمة.

وعلى وجه الإجمال، كما قال كين، ضعف التمرد السني كثيراً. «التأييد الشعبي يتآكّل. وعلاقات تنظيم القاعدة في العراق تتشظى وتنقسم. ويعبر السنة عن استعداهم للانضمام إلى قوات الأمن العراقية في العملية السياسية. وهذا أمر بالغ الأهمية. المفاوضات واعدة، لكن يجب علينا الحذر من إستراتيجية التخريب- القتال-المساومة» من جانب السنة. أما «العدو العسكري الرئيس فهو تنظيم القاعدة في العراق. وله قدرة كبيرة على إضعاف الدعم السياسي في العراق والولايات المتحدة. لكنه وهن وخسر ملاذه الآمن في الأنبار».

وقال إن القادة الأمريكيين «يدركون تماماً أنهم يملكون زمام المبادرة ضد القاعدة، وهم يركزون على جهد مهم ومنسق في مطاردة أفرادها».

الخبر السيئ أن جيش المهدي «يحظى بدعم إيراني لا تحده قيود في جنوب العراق ومدينة الصدر»، مع أنه ليس كتلة صلدة واحدة.

وفيما يتعلق بالجانب السياسي، قال: «يبدو أن المالكي يبتعد عن الصدر، وهذه علامة مهمة وإشارة مشجعة. وعلينا بذل جهود شاملة لتشويه سمعة الصدر ومصداقيته؛ لأنه برز بوضوح بوصفه عدونا السياسي رقم واحد في العراق».

قال كين إن رئيس مكتب وكالة المخابرات المركزية في بغداد أبلغه بعملية بالغة السرية يمكن القيام بها لمنع المقاتلين الأجانب من القدوم عبر سوريا. أما التأثير الكامل لزيادة عدد القوات فلن يمكن الشعور به قبل نهاية تموز؛ لأن آخر الألوية الخمسة لن يصل حتى حزيران. «تظهر كل منطقة من مناطق العمليات التي زرتها في شباط الماضي، أي قبل تسعين يوماً، خصوصاً في بغداد، تحسناً وتقدماً»، كما قال كين.

«هناك مشكلة الشيعة أو جيش المهدي في شرق بغداد وهناك ملاذ آمن في مدينة الصدر. يعرف القادة هذه المشكلة، وحين تصل القوات كلها في حزيران، سوف يتصدون لها. ومازالت هناك أيضاً قطاعات سنية مقاتلة تستضيف القاعدة حتى الآن». وسمى ست مناطق: شرق الرشيد، والدورة، والغزالية، والمنصور، والعامرية، والعادل».

«ويدور قتال صعب ومعقد ضد القاعدة وجيش المهدي في محافظة ديالى. وبمقدورنا على الأرجح استخدام مزيد من القوات على الأرض»، لكن بدلاً من ذلك، خطط القادة لأخذ الجنود الذين يوفرون الحماية للقوات في القواعد الأمريكية.

«ويضعف السلوك الطائفي الذي تتبعه الحكومة العراقية إلى الآن شرعيتها». في بعض الأحيان، أظهر الضباط الأمريكيون الذين عملوا في الماضي مع الشركاء العراقيين المتورطين في النشاط الطائفي نوعاً من عدم المبالاة. «لكن الجنرال بترايوس غير هذه السياسة»، كما قال منتقداً كيسي. «هذه فضلة باقية من القيادة السابقة».

«تتعرض حكومة المالكي إلى ضغط استثنائي. وتبقى نياته ومقاصده غامضة. ثم إنه خاضع لمعلومات مغلوطة وتأثيرات حاقدة»، كما قال كين. لكن بترايوس يتفوق على أي قائد أمريكي جاء قبله في القدرة والمقدرة. «نحن نحتل عاصمتهم بقواتنا بطريقة لم نتبعها قبلاً».

وعد بترايوس علناً بالعودة إلى واشنطن في أيلول ليقدم تقريره أمام الكونغرس. واعتقد كين أن ذلك يمثل مشكلة فيما يتعلق بالتوقعات. «وبمعنى من المعاني، يعد ذلك جدولاً زمنياً بحد ذاته لتقويم نجاح « الزيادة في عدد القوات» أو فشلها، إذ يفترض أن يكون تقريراً عن التقدم الذي تحقق فقط. فبحلول أيلول، سوف يتحسن الوضع الأمني على الأرجح، لكن «يحتمل ألا نلبي المعايير السياسية التي يضعها الجميع. والخطر هو أن يغطي عدم اليقين السياسي هذا على التقدم الفعلي الذي تحقق. وبرأيي، يجب ألا يحدث ذلك».

وأضاف كين ملحاً: «هذا مقدور عليه. يمكننا تحقيق النجاح. يجب أن نُمنح الوقت الكافي للنجاح».

قبل أسبوع، أجبر الرئيس الكونغرس على تمويل الحرب ثلاثة أشهر أخرى دون ربطه بمواعيد محددة للانسحاب. لكنه لم يهدئ مشاعر الاستياء والتململ داخل حزبه.

في السادس والعشرين من أيار، حافظ زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ ميتشل مكونيل (من ولاية كنتكي) على المستوى ذاته من انتقاد الجمهوريين الوضعَ في العراق وعدم رضاهم عنه، حين قال: «الكتابة واضحة على الجدار: نحن ذاهبون إلى وجهة أخرى في الخريف، وأتوقع أن يقودنا الرئيس إليها. وأعتقد أنه أشار بنفسه إلى عدم رضاه عن وضعنا الراهن بالتأكيد» [1].

وقال كبار الجمهوريين إنهم يتوقعون إستراتيجية جديدة في الخريف القادم بعد أن يقدم بترايوس تقريره أمام الكونغرس.

أبلغني الرئيس فيما بعد [2]، بعد أن امتنع عن الخوض في تفاصيل ما قاله مكونيل في السر: «لن ألوم هذا الرجل. كان كثير من الأعضاء يرسلون إشارات، بعضها إلي مباشرة. لذلك، لا أريد الحديث عن شخص واحد. لكن كنت أعرف من كبار أعضاء فريق الإدارة مدى إلحاح الأعضاء الجمهوريين ومطالبهم: من الأفضل أن ينسحب بترايوس. من الأفضل أن نفعل هذا الأمر أو ذاك. لن يتحقق التقدم إلا بتقليص عدد القوات هناك... وغير ذلك من الآراء المعبرة عن مثل هذه المواقف».

«أفهم سياسة الحرب، وسوف أصغي إلى هؤلاء الحلفاء والأصدقاء. لكن برأيي، يتمثل الهم الأساسي بالنجاح في العراق. وتعد هذه الهموم السياسية قصيرة المدى مقارنة بتبعات الفشل وعواقبه على المدى البعيد. ومن جانبي، أنا على استعداد كامل للتضحية بالشعبية على المدى القريب من أجل فعل ما هو صواب، بحيث يقول الناس على المدى البعيد: الآن، نحن نفهم لماذا اتخذ القرار الذي اتخذه».

أعد تشيني ترتيبات زيارة كين إلى البيت الأبيض في الحادي والثلاثين من أيار. وانضم كين إلى الرئيس، ونائب الرئيس، ومستشار الرئيس (هادلي) على مائدة غداء في غرفة الطعام الصغيرة المجاورة للمكتب البيضاوي.

أعاد كين توكيد معظم ما قاله لتشيني لكنه توسع وفصّل. الخسائر الأمريكية في الأرواح تزداد، لكن السبب هو شن هجوم معاكس حقيقي، يشبه معركة إنتشون في

الحرب الكورية وغزو النورماندي في الحرب العالمية الثانية. ولو أدين الهجوم المعاكس في النورماندي، كما قال كين، بسبب الخسائر البشرية المرتفعة «لكان علينا شد الرحال والرجوع إلى السفن والإبحار بها عائدين إلى الوطن».

قال كين إن الإستراتيجية تعمل بنجاح. «والمسألة مسألة الوقت». وهو لا يريد أن يلقي محاضرات أو مواعظ، لكن «حتى مع هذا الاختطار، هناك شيء يجب قوله: ربما يكون هؤلاء العسكر الذين أرسلناهم إلى العراق أكثر القوات التي وضعناها في ساحة المعركة مثالية منذ حرب الاستقلال».

قال الرئيس: «يشمل ذلك الحرب الأهلية أيضاً».

قال كين: «هذا محتمل. لكن الشعب الأمريكي ساخط على الجهد المبذول ولم يعد يؤيد الحرب». وكذلك الكونغرس. «ومع ذلك كله، وفي كل يوم، يذهبون إلى هناك وهم على أتم الاستعداد للتضحية بكل غال ونفيس في الحياة».

نشرت صحيفة نيويورك تايمز على صدر صفحتها الأولى في نهاية ذلك الأسبوع خبراً بعنوان: «البيت الأبيض يناقش تخفيض عدد القوات بنسبة 50% بحلول عام 2008». وزعمت أن رايس وغيتس يؤيدان إجراء تخفيضات على عدد القوات، مما يترك قرابة مئة ألف جندي فقط في العراق بحلول السنة اللاحقة. قال كين إن مثل هذه الأخبار «موهنة للعزيمة» و«مدمرة للروح المعنوية» [3].

وأضاف إن الضباط، حتى من ذوي الرتب الرفيعة، لم يفهموا الفروق الواهية في واشنطن، «إذ لا يفصلون بين القائد العام، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وبين البيت الأبيض. ويفترضون أن كل ما يصدر عن البيت الأبيض لا بد أن يشمل الرئيس».

تدخل بوش مقاطعاً: «أشار بترايوس إلى شيء مشابه حين استهل آخر اجتماع بيننا عبر نظام الفيديو الآمن. إذ قال: السيد الرئيس، بصراحة أنا وأوديرنو نتساءل عما يحدث. قلت لديفيد إنه يحظى بتأييدي الكامل، إضافة إلى دعم الإدارة».

تابع كين: «الخبر السار أن المالكي يبتعد عن الصدر. ولم يرفض قط أي طلب لبترايوس بقتل قادة الميليشيات الشيعية أو اعتقالهم. وهذا أمر مدهش تماماً». فقد وافق المالكي على خمسين من هذه الطلبات.

قال كين: «يجب أن ندعم المالكي ونقف معه. ونظراً إلى مدى ضعفه، وضعف تحالفه، والوقت المتاح لنا هنا في أمريكا، لا أعتقد أن لدينا الوقت اللازم لتغيير الحكومة». يتعرض المالكي لضغط استثنائي. «ويستجيب لآخر اتصال يتلقاه بالهاتف الخلوي». فقد أبلغه بترايوس كيف يتعرض المالكي لهجوم الشيعة، ثم السنة، ثم الأمريكيين كل ليلة، حيث يريد كل طرف شيئاً مختلفاً منه.

قال بوش إن المالكي يتطور في أداء وظيفته.

أضاف كين: « يحظى السفير كروكر بقبول الجميع».

قال الرئيس: «أجل، كروكر رجل عظيم».

قال كين: «اختياره موفق، ويتمتع بسمعة رائعة».

وأضاف: «وتربطه علاقة وثيقة ببترايوس».

قال بوش: «المالكي لا يحب بترايوس كثيراً».

قال كين: «لا، بالطبع لا يحبه. تمثلت إستراتيجية كيسي بتسليم السلطة إلى العراقيين والقيام بالمهمة بأنفسهم. لذلك كان يعطيهم القيادة ويترك لهم التصدي للقضايا كلها، بحيث بدا سلبياً إلى حد ما. فجاء بترايوس وطالب المالكيَّ بالكثير. وفي كل مرة يدخل مكتب بترايوس، يتلقى طلباً منه». قال كين إن كروكر بحاجة إلى بعض العون. «لم يصل أي من أعضاء فريقه».

قال هادلي: «سيكونون هناك في الصيف».

شرح كين قائلاً إن السبب يعود إلى استمرار وزارة الخارجية في تبني سياسة عدم نقل موظفيها في أثناء العام الدراسي. ولاحظ أن المؤسسة العسكرية تنقل أفرادها حين تحتاج المهمات الحربية إلى نقلهم. نقطة.

قال كين إن الكونغرس أصر لسوء الحظ على عودة بترايوس في أيلول وتقديم تقرير علني. وإن عودة قائد ميداني أمريكي إلى واشنطن لتقديم إيجاز عن مدى التقدم الذي حققه تعد سابقة سيئة. إذ يجب على القائد الميداني رفع تقريره عبر سلسلة القيادة وحدها.

قال بوش: لا علاقة لي بالأمر».

كان الكونغرس قد أجاز قانوناً يطلب من بترايوس تقديم شهادته أمامه.

في السادس من حزيران 2007، قضيت ثلاث ساعات في مدينة نيويورك مع وزير الدفاع السابق في عهد كلينتون، بيل بيري، الذي كان ناشطاً جداً في لجنة بيكر–هاملتون. وعلى شاكلة معظم أعضاء اللجنة، أدرك بيري أن بوش رفض توصياتهم الرئيسة عبر تبني مبدأ زيادة القوات. وبدا ذاهلاً على نحو خاص؛ لأن الجنرال كيسي والجنرال تشياريللي أبلغاه أن إضافة مزيد من القوات لن يكون لها أي تأثير.

قال بيري، الحذِر عادة: «دعني أتنبأ. في تشرين الأول، سيحدث تغيير رئيس في طريقة إدارة الحرب. وسبب قولي هذا يعود إلى أن ديفيد بترايوس، حين شهد أمام الكونغرس في جلسة تثبيته، أبلغ الأعضاء أنه سيعود في أيلول ويقدم تقريراً. وديفيد رجل صادق وأمين، ولذلك سيقدم تقريراً صادقاً وأميناً. وأتوقع أن الزيادة لن تكون ناجحة. ولذلك سوف يفضح تقريره الكارثة المتواصلة وسيعلنها بصراحة... وآنئذ، أعتقد أن الرئيس سيخسر قرابة ثلث الجمهوريين في الكونغرس، الذين ظلوا إلى الآن متشبثين بتأييدهم إياه. وعند تلك النقطة، سوف تتغير الديناميات كلها». وسوف يصوت الكونغرس لتجاوز أي اعتراض من بوش، كما قال بيري. «سوف يمسك المشرعون بزمام السيطرة، وأولئك الذين يسيطرون سيريدون إنهاء الحرب» [4].

بدأت قوات بترايوس تستميل العشائر في الأنبار على نحو منتظم، حيث تمكنت من تجنيد الزعماء الذين أحبطهم عنف القاعدة وانتهاكاتها وتدخلاتها [5]. كان جهداً

ابتدأ في أواخر عام 2005 مع مشاة البحرية في منطقة القائم الواقعة في أقصى محافظة الأنبار قرب الحدود السورية. وانتشرت الحركة ببطء وثبات على طول وادي الفرات إلى الرمادي، حين أخذ شيوخ العشائر الآن يرسلون المئات من الشباب المحليين للانضمام إلى قوات الشرطة العراقية.

لكن ماذا عن بغداد؟ سمع بترايوس أن نقيباً في القوات الخاصة العراقية السابقة وقائد مجموعة متمردة سنية تدعى «وطنيو بغداد»، يريد الانضمام إلى الولايات المتحدة ضد القاعدة. وهكذا، جلب أبو عابد، المعروف أيضاً باسم سيف، قوة يراوح عديدها بين أربعين ومئة من المقاتلين المتمرسين [6].

وجد أبو عابد نفسه فجأة عاطلاً عن العمل حين جرى حل الجيش العراقي عام 2003. وعلى شاكلة كثيرين غيره، جعلته البطالة يشعر بالازدراء وعدم الاحترام تجاه الأمريكان. لكن منذ ذلك الحين، استولت القاعدة على حي العامرية السني. وفجرت منزل أبو عابد وقتلت أشقاءه، وهي تطارده الآن. كان حي العامرية على درجة من العنف بحيث لم تتمكن القوات الأمريكية وقوات التحالف من دخول المنطقة بعربات همفي. فقد فجر في الحي العديد من دبابات إم 1 وناقلات الجنود المدرعة من نوع برادلي.

علمت القوات الأمريكية أول مرة بتغير موقف أبو عابد حين تلقت اتصالاً بالهاتف الخلوي من إمام محلي أبلغ فيها قائد الكتيبة الأمريكية المرابطة في المنطقة أن المليشيا تنوي استرداد الحي من سيطرة القاعدة. وانتشر خبر طلب مجموعة «وطنيو بغداد» (بتزويدها بالسلاح وعدم التدخل) بسرعة البرق عبر سلسلة القيادة.

انضم بترايوس، الذي كان يمارس رياضة العدو مع بعض الضباط الشباب، إلى الرائد الموجود مع وحدته العسكرية في العامرية. قتل قرابة عشرة من جنود كتيبته ذلك الشهر. وأبلغ الرائد بترايوس أن العرض المقدم من أبي عابد مهم، مع أن مساعدته هو ورجاله مغامرة محفوفة بالمخاطر. ولن تسعد رئيس الوزراء المالكي رؤية الأمريكيين يدعمون ميليشيا سنية. وتساءل عدد من الضباط هل يعقد الأمريكان صفقة مع الشيطان. فعلى الرغم من كل شيء، كان أبو عابد متمرداً سابقاً قتل دون شك جنوداً أمريكيين.

قال بترايوس آمراً: «علينا مساندته. ليركب مع رجاله عربات برادلي. زودوه بذخيرة من الجيش العراقي».

في مدة أربع وعشرين ساعة، بدأ الهدوء يخيم على الحي. كان المقاتلون العراقيون يعرفون المنطقة، وأخذوا يقودون الجنود الأمريكيين إلى مخابئ الأسلحة، والعبوات الناسفة المحلية الصنع، وملاجئ القاعدة. وفي حين عبر بعض الضباط في الكتيبة عن تحفظاتهم العميقة، عدَّ معظمهم الترتيبات وانخفاض مستوى العنف اللاحق علامة دالة على إحراز تقدم.

في السر، عد بترايوس ذلك كله نقطة تحول محتملة في العاصمة. فمفتاح تخفيض عدد القوات الأمريكية هو دفع العراقيين إلى حماية السكان، بحيث لا يقوم بالمهمة جنود بترايوس.

استطلع غيتس رأي حفنة من أعضاء مجلس الشيوخ، ومنهم كارل ليفين، الرئيس الجديد للجنة الخدمات المسلحة، حول احتمال إبقاء بيس في منصبه رئيساً لهيئة الأركان المشتركة مدة عامين إضافيين [7].

سأله غيتس: «ما رأيك؟».

قال ليفين: «ستدور رحى حرب طاحنة هنا حول العراق».

طلب غيتس من ليفين معرفة رأي زملائه.

شعر ليفين أن القضية تتعلق بالمحاسبة. إذ لم يحمّل الكونغرس أحداً من المستويات القيادية العليا مسؤولية السياسة الفاشلة. وعرف بعدم وجود طريقة يمكن عبرها الموافقة على التمديد لبيس دون أن تتحول الجلسة إلى جلسة تنفيس عن الغضب.

سأل غيتس: «حسناً، هل ترى أن الآخرين يراودهم الشعور ذاته أم لا؟».

استطلع ليفين، الذي خدم في مجلس الشيوخ منذ عام 1979 وصوّت ضد الحرب عام 2002، آراء قرابة ستة من زملائه الديمقراطيين وبعض الجمهوريين، فأبلغوه كلهم أن جلسة التمديد لبيس ستتحول إلى معركة حقيقية. وقال بعضهم: لا وحق الجحيم».

بادئ ذي بدء، لعب بيس دوراً في صياغة إستراتيجية لم تنجح. والأسوأ أن هناك شعوراً بين أعضاء مجلس الشيوخ -عززه الاستماع إلى مجموعة متنوعة من الضباط- أنه ليس صريحاً، وأنه ليس من النوع الذي يقف في وجه الإدارة ويقول إن الأمور تجري على مسار خاطئ. على سبيل المثال، قال الجنرال المتقاعد جيمس جونز، قائد مشاة البحرية بين عامي 1999-2003، إن بيس كان متخاذلاً ولين العريكة في تعامله مع رمسفيلد وشبهه «بالببغاء على كتف الوزير».

حذر ليفين غيتس من أن المعركة ستكون شرسة. سوف تركز جلسة التمديد على الإخفاقات في العراق كلها، وعلى دور بيس فيها. ولم يعرف كيف سيثبت بيس في المنصب. وهكذا، قرر غيتس عدم المخاطرة.

في يوم الجمعة الثامن من حزيران، أعلن غيتس أن الجنرال بيس سوف يترك منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة في أيلول [8]. وقال إنه أراد أن يجنب بيس جلسات الاستماع المريرة في مجلس الشيوخ. «أعتقد أن الأحداث التي وقعت في الأشهر الأخيرة أوجدت بيئة لن تكون فيها عملية التثبيت والموافقة في مصلحة البلد. وأشعر بخيبة الأمل؛ لأن الظروف هي التي جعلت هذا القرار ضرورياً»، كما أبلغ المراسلين في البنتاغون

على الرغم من محاولة غيتس التمويه على قراره بكلمات معسولة، إلا أن الحقيقة هي أن بيس طرد من منصبه. وسوف يتقاعد بعد أن عمل في الوظيفة مدة سنتين فقط، وهي أقصر مدة يقضيها رئيس أركان منذ أكثر من أربعة عقود. ومع تقاعد الأدميرال إدموند جيامباستياني، نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، في الوقت ذاته تقريباً، خرج من الخدمة كبار جنرالات واشنطن الذين ارتبطوا برمسفيلد في أثناء عمله وزيراً للدفاع.

في حزيران، أرسل هادلي أوسوليفان إلى العراق، فوجدت الهلع مسيطراً في كل مكان. فقد وصلت الألوية الإضافية، وطبقت الإستراتيجية الجديدة، لكن العنف ظل يتصاعد، ليتجاوز عدد الهجمات 1550 في الأسبوع، أي قرابة 220 في اليوم —وهذا رقم قياسي جديد. وفوق ذلك كله، بقيت السياسة راكدة. إذ لم تلح أي بارقة للمصالحة في الأفق. لكن مما لا يصدق أنها فضلت بغداد على واشنطن!

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع عشرة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Michael Abramowitz and Peter Baker, «White House Considers Next Steps in Iraq: Troop Drawdowns and Shift in Mission Are Promised on Successful 'Surge,'» *The Washington Post*, May 27, 2007, P. A5.

2- مقابلة مع الرئيس جورج بوش، 2008/5/21.

David E. Sanger and David S. Cloud, «White House Said to Debate '08 Cut in -3 Troops by 50%,» *The New York Times*, May 26, 2007, P. A1.

4- مقابلة مع بيل بيري، 6/6/2007.

5- في حزيران 2008، وزع بترايوس توجيهاً من ثلاث صفحات بعنوان «القوة المتعدد الجنسيات–دليل قائد القوات في العراق لمكافحة التمرد» أظهر اعتقاده أن حماية السكان العراقيين تشمل أعمالاً محددة تقوم بها القوات على الأرض. وعدّد اثنين وعشرين عملاً، منها:

*العيش بين الناس. لا يمكن الانتقال جيئة وذهاباً إلى ميدان هذا الصراع. يجب إقامة محطات أمنية مشتركة، ومخافر قتالية متقدمة، وقواعد للدوريات في الأحياء التي ننوي تأمينها...

*تشجيع المصالحة. لا يمكننا التخلي عن هذا المسعى...

*تعزيز الشرعية العراقية... الشرعية في عيون الشعب العراقي أمر جوهري للنجاح الإجمالي.

*بذل الجهد للحصول على المعلومات الاستخبارية... يجب العمل على أساس «الحاجة إلى المشاركة» لا «الحاجة إلى المعرفة»...

*على الجندي الأمريكي أن يسير ويتجول على رجليه (الدوريات الراجلة أفضل من الدوريات المؤللة) ويتوقف للتحدث مع السكان...

*يجب بناء العلاقات. العلاقات مكون حاسم الأهمية من عمليات مكافحة التمرد...

*إدارة التوقعات. يجب تجنب الإعلانات عن النجاح قبل الأوان...

*يجب التشبث بالحقيقة... وعدم تجميل القبح... وتجنب الحكايات الخيالية، وترك الحقائق تتحدث عن ذاتها...

*التشبث بقيمنا... لا يوجد مسعى أصعب من هذا الذي نؤديه. وغالباً ما يكون وحشياً، وكثير المتطلبات بدنياً ومادياً، ومحبطاً ومخيباً الآمالَ. خبرنا جميعاً لحظات من الغضب، لكن لا نستطيع الاستسلام للدوافع المظلمة ولا التساهل مع الأفعال غير المقبولة التي يرتكبها الآخرون...

6- Joshua Partlow, «For U.S. Unit in Baghdad, an Alliance of Last Resort,» *The Washington Post*, June 9, 2007, P. A1.

7- مقابلة مع كارل ليفين، 6/12/2007.

8- News Conference with Secretary of Defense Robert Gates Announcing» Recommendation of Admiral Michael Mullen to Be Chairman of Joint Chiefs of Staff, and General James Cartwright to be Vice Chairman,» Federal News Service, June 8, 2007, www.fnsg.com.

-36-

في الساعة التاسعة من صبيحة الثالث عشر من حزيران، شن المتمردون هجوماً ثانياً على مرقد الإمام العسكري في سامراء، أحد أقدس الأماكن لدى الشيعة. دمر الانفجار مئذنتي الجامع (اللتين يبلغ ارتفاعهما عشرة طوابق). وكان الهجوم الأول على المرقد قبل ستة عشر شهراً قد أطلق موجة كاسحة من العنف الطائفي. في بغداد، حبس بترايوس مع مسؤولي الاستخبارات الأمريكية العسكرية أنفاسهم.

تملك المالكي غضبٌ عارم.

سأل بترايوس بنبرة اتهامية: «كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ فمع قوات التحالف الموجودة هناك كلها، والقوات العراقية، لابد أنكم، أنت والتحالف، قد سمحتم لهذا أن يحدث. كيف دخل هؤلاء إلى هناك؟».

أجاب بترايوس: «كانت أعداد كبيرة من القوات حاضرة في المكان، لكن هناك أمراً آخر. ما أقترحه عليك، أنني سأرسل لك مروحية ومساعدي الشخصي. اذهب إلى هناك. اذهب بنفسك. وألق نظرة. اذهب وتحدث مع القادة واعرف منهم ما حدث».

كان مساعد بترايوس رجلاً طويل القامة (لعب في شبابه كرة السلة)، ومترجماً ماهراً، ومقاولاً مدنياً اسمه سعدي عثمان، ولد في الأردن ودرس في كلية مينونايت في كنساس وعمل ذات يوم سائقاً في مدينة نيويورك. (سماه بترايوس «مايكل جوردان الأردن»!). بدأ سعدي العمل عند بترايوس مترجماً في الموصل بعد غزو العراق عام 2003. وحين عاد بترايوس قائداً عاماً للقوات في العراق، جعل سعدي واحداً من كبار مستشاريه. كان يجيب على هاتف بترايوس الخلوي في العراق، ونظر إليه كثير من العراقيين على أنه بترايوس ذاته.

ركب المالكي وسعدي الحوامة إلى سامراء واستقبلهما القادة العراقيون المحليون.

بدأ المالكي يصرخ على قائد الشرطة الحاضر هناك: «في كل مرة أسألك عن سامراء، تقول كل شيء على خير ما يرام. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ أنت غبي! أنت عاجز! ولديك هؤلاء الحراس كلهم» حول المسجد.

ثم أمر المالكي بفرض حظر على التجول لوقف حركة المشاة والسيارات. وفيما بعد، اتضح أن عدداً من أفراد الشرطة العراقية متورطون في عملية التفجير.

في اليوم اللاحق، الرابع عشر من حزيران، التقى المالكي وبترايوس وكروكر قرابة الساعة 12:45 بعد الظهر.

قال المالكي: «نحن نفهم حقيقتين فعلاً عن الإرهابيين الآن: الأولى أنهم يستهدفون الخدمات الأساسية؛ لأنها تمارس تأثيراً مباشراً في الناس، والناس يمارسون تأثيراً مباشراً في الحكومة. وهذا يظهر أن الحكومة عاجزة عن وقف الهجمات واستعادة الخدمات الأساسية». وذكر على وجه الخصوص قطع إمدادات النفط والكهرباء. «والحقيقة الثانية التي نعرفها أنهم سيستهدفون الأماكن المقدسة؛ لكي يستفزوا العنف الطائفي بين الجماعات».

تجاهل السفير كروكر هذه الرواية الوصفية التي تفصل ما هو واضح لا لبس فيه، وقال له: «الأوامر التي أصدرتها نتيجة أحداث الأمس تستحق مني التحية. وأعتقد أنك فعلت الصواب بالضبط. فأهمية العبارات في أوامرك هي أنك تضع اللوم على القاعدة مباشرة، وتظهر أن هذا الهجوم موجه إلى مكونات الشعب العراقي كله: السنة والشيعة والكرد أيضاً. فمن المهم جداً عدّ الهجوم هجوماً للقاعدة على العراق، لا على أي طائفة معينة فيه».

قال بترايوس: «أجل. أوافق تماماً. لقد فعلت ما هو صواب. والأمور هادئة الآن، لكن لا نستطيع الاعتماد على هذا الهدوء».

قال المالكي: «لهذا السبب أصدرنا قرار منع التجول الموسع، وأجلنا الامتحانات» (في إشارة إلى امتحانات المدارس الثانوية).

قال بترايوس: «كانت رحلتك بالأمس بالغة الأهمية. لقد أظهرت قدرة قيادية كبيرة».

«لقد أغلقنا المنطقة برمتها».

سأل بترايوس: «كم من الوقت يتطلب إعادة بناء المرقد. هل يمكن البدء بأعمال البناء فوراً، مع أو دون الأمم المتحدة؟». كان يشير إلى خطة إعادة بناء المسجد بعد التفجير الذي وقع منذ ستة عشر شهراً.

أجاب رئيس الوزراء: «أجل. في الحقيقة كنا بالأمس على وشك توقيع الأوراق مع منظمة اليونسكو والشركة التركية التي فازت بالعقد، لبدء عملية إعادة البناء». اليونسكو منظمة تابعة للأمم المتحدة تتعاون مع العراق في مشروعات إعادة الإعمار. قال المالكي إن الرئيس بوش اتصل به أمس «ليقول إن الولايات المتحدة ستوفر أي دعم ضروري لإعادة البناء».

قال كروكر: «توقيع العقد في الأيام القليلة القادمة، مع كثير من الدعاية، سيكون إشارة قوية إلى الرأي العام. وسيشعر العالم كله بالسرور».

أجاب المالكي: «حسناً، الأمر بيد اليونسكو».

اتبع بترايوس وكروكر الاستجابة السياسية العراقية النمطية. فبدلاً من أن يمدا أيديهما إلى رقبة المالكي لخنقه كما رغبا على ما يبدو، قال بترايوس: «هناك من يقول إنك بارع فعلاً إن تمكنت من تحويل العداوة إلى فرصة، ويمكن فعل ذلك في هذه الحالة».

قال المالكي: «أهالي سامراء خائفون الآن»، وأضاف بكل ثقة: «لكن عندما يشاهدون قوات الأمن العراقية سوف يساندونها علناً، أنا واثق بذلك».

لكن الاستخبارات الأمريكية أظهرت أن الطائفية تنخر قوات الشرطة العراقية، وما يزال بعض أفرادها يحملون صور صدام. لكن أياً من الرجلين لم يحاول تحدي توكيد المالكي.

قال بترايوس: «احتفظ بالسر مدة يومين. سوف نشن هجوماً شاملاً على مستوى العراق كله على المناطق التي تتخذها القاعدة ملاذاً لها». ووعد بأن يشارك رئيس

الوزراء بأي معلومات استخبارية يحصل عليها نتيجة العمليات. قال كروكر إن الزعيم الكردي مسعود البرزاني وافق على الامتثال للقانون العراقي القاضي بالتشارك في عائدات النفط مع المحافظات الأخرى، وهذا تشريع مهم. «والخطوة اللاحقة هي تقديمه أمام البرلمان».

كان المالكي يومئ رأسه موافقاً. «لم نكتف بالاتفاق على ذلك فقط، بل لدينا اتفاق إطاري حول قانون اجتثاث البعث».

انقض بترايوس على فرصة العلاقات العامة. فقد عرف أن هادلي وغيره في الإدارة يبحثون عن حدث درامي مؤثر. واقترح أن يستغل المالكي الاتفاق على إعادة بناء مسجد سامراء وخبر التسوية فيما يتعلق بقانون النفط. قال: «سوف تركز عليك برامج التلفاز الحوارية التي تبث يوم الأحد. فلماذا لا تنظم حملة دعائية حول هذه الأحداث الإيجابية المفضلة لتسليط الضوء على إنجازاتك؟». وأضاف: «دعني أساعد في مثل هذه البرامج».

قال المالكي: «هناك خبر سار آخر. لقد علق الصدر مشاركة ممثلي تنظيمه في المجلس، ويمكن للبرلمان التعامل مع هذا النشاط كله بسرعة وبفاعلية أكبر». في المدة الأخيرة، خرج ستة من الوزراء الموالين للصدر من الحكومة احتجاجاً على رفض المالكي وضع جدول زمني لانسحاب القوات الأمريكية. مما ترك المالكي حراً في اختيار من يحل محلهم.

قال بترايوس: «سوف أشدّد على محطة فوكس الإخبارية هذه النقاط كلها، بحيث تحصل على تأييدي».

قال علي الدباغ، الناطق باسم المالكي: «أجل. يجب أن نشارك في البرامج الحوارية».

قال بترايوس: «سوف نوزع الأدوار». ثم أشار إلى الدباغ: «تحدث أنت مع الجزيرة».

وأضاف: «لدينا مزيد من الأخبار السارة». حرص على اختتام الاجتماعات مع المالكي بملحوظة إيجابية. إذ استكملت للتو عمليات إصلاح منصات تصدير النفط في الخليج

مما يتيح للناقلات تحميله. قال: «علينا تسليط الضوء أيضاً على استكمال عمليات تصليح منشآت تصدير النفط في البصرة». وطلب أيضاً التقاط صور لمناطق جنوب غرب بغداد التي تركز عليها عمليات إعادة التطوير.

تمثلت فلسفة بترايوس فيما يتعلق بتغطية وسائل الإعلام بأن المراسلين ينقبون عن الأخبار السيئة بأنفسهم. وإذا لم يقدم هو والمالكي أخباراً سارة، مهمة كانت أم غير مهمة، فمن المرجح ألا يذكرها أحد.

في السابع عشر من حزيران، ظهر الجنرال بترايوس في برنامج «فوكس نيوز صنداي» مع كريس والاس، وقال: «بالأمس، عقد اتفاق بين منظمة اليونسكو وحكومة العراق لإعادة بناء مسجد سامراء». لكن والاس لم يظهر أي اهتمام، وسأل بدلاً من ذلك عن مستويات العنف وعدم وجود قانون للنفط. قال بترايوس إن من المتعذر حل مشكلات العراق كلها «في سنة أو اثنتين... تاريخياً، دامت عمليات مكافحة التمرد تسعة أعوام على الأقل أو عشرة». لكنه أضاف ملحاً: «ثمة احتمال جيد بحدوث تقدم في الأشهر القادمة».

في نهاية المطاف، وقع اتفاق إعادة بناء مسجد سامراء، لكن تعثر الاتفاق على إصلاح قانون اجتثاث البعث وقانون النفط.

في الثامن والعشرين من حزيران، جمعت رايس عشرين من كبار المسؤولين في وزارة الخارجية، وأهم نوابها، وأقرب مساعديها؛ لعقد لقاء على مدى يومين اثنين في منتجع إيرلي سنتر (الذي يضم مرافق لعقد المؤتمرات) في أرياف ولاية فرجينيا. وبعد أن ناقش المجتمعون مختلف البرامج الضرورية لتغيير الدبلوماسية والمعونات الخارجية، أثارت الوزيرة السؤال الحقيقي.

سألت: «هل تريدون التحدث عن العراق؟».

أشار الجميع إلى الرغبة في الخوض في الموضوع. فالعنف في أعلى مستوياته، والفوضى تعم العراق كحالها دوماً. وقتل إلى الآن 3562 من الجنود الأمريكيين.

استحثتهم رايس على التحدث بصراحة وصدق، وكأنما ضغط أحد على زر ليحرر الضغوط والتوترات التي تراكمت طوال سنين.

تذكر أحد المشاركين، وهو من أخلص حلفاء رايس في الوزارة، ما حدث آنذاك: «كان همهم منصباً على الإستراتيجية؛ هل تنجح؟ هل يمكن أن تنجح؟ ما التأثير الدائم لحرب العراق في موقع الولايات المتحدة في العالم؟ وفي المنطقة؟ على الصعيد المحلي، ما تأثيرها في الولايات المتحدة؟ لم تقل رايس الكثير، لكن اللحظة كانت مترعة بالكآبة لأنهم قالوا: لا نعرف إلى أين نتجه، ولا نعرف ما هذا الذي يحدث، ولا نعرف هل يمكن لإستراتيجية زيادة القوات أن تنجح». وأكد عدد من المشاركين الآخرين مدى تشاؤم النقاش الذي دار حول العراق.

اتبعت رايس السلوك المتوقع فاختارت التركيز على أي بارقة أمل وأي رأي متفائل سمعته. تذكرت فيما بعد ما جرى: «قال ثلاثة أو أربعة من المساعدين: لا يمكن أن نخسر، بل لا يمكن أن يتصور أحد أن نخسر». فالخسارة في العراق ستترك تأثيراً مدمراً في زعامة أمريكا، كما أكد الحاضرون. لذلك يجب أن تفوز. ولم يقدم أحد الحجة لمصلحة الانسحاب الصريح.

لكن أغلبهم غادروا الاجتماع محبطين يائسين. فإستراتيجية إدارة بوش الجديدة بإرسال مزيد من القوات الأمريكية لحماية السكان لم تظهر سوى القليل من أمارات النجاح.

في التاسع والعشرين من حزيران، التقى بوش بالزعماء الجمهوريين في مجلسي الشيوخ والنواب.

قال النائب راي بلنت (جمهوري من ولاية ميسوري) الذي يحتل المرتبة الثانية في زعامة الحزب في مجلس النواب: «السيد الرئيس، ليست لديك مصداقية عند التحدث عن العراق».

رد بوش: «أعلم ذلك».

قال بلنت: «أسوأ شيء تفعله أن تتحدث عن العراق».

اعترف بوش قائلاً: «يعتقد الناس أنني بالغت في التفاؤل مدة طويلة».

لاحظ بلنت أن الشعب العراقي لم يغتنم الفرصة لإقامة ديمقراطية فاعلة طوال أربع سنين. «لا يوجد في البلد أحد يهتم كثيراً بالديمقراطية بحسب نموذج جيفرسون».

أجاب بوش: «أعرف أن الناس يشعرون بذلك، لكن لا أوافقك الرأي». فقد اعتقد أن الديمقراطية هي السبيل الوحيد، ولديه آمال كبار بزيادة عدد القوات.

سأل الرئيس بترايوس عدة مرات: «هل ننقل المعركة إلى العدو؟». أو «هل نحن في موقف هجومي؟». وفي عدد من المناسبات، سأل عن خسائر العدو: «كم عدد الأعداء الذين قتلناهم؟».

لم يعطه بترايوس الأرقام المطلوبة إلا كل بضعة أسابيع. كان يقول: «السيد الرئيس، لن نحقق النصر والانسحاب من العراق عن طريق القتل. والمسألة لا تتعلق بنسب متبادلة» من القتلى الأعداء مقابل القتلى الأمريكيين. لكنه اعترف: «نحن أشد فتكاً، وتفاوت النسب هائل». فقد كانت قوات التحالف تقتل عشرات من مقاتلي العدو مقابل كل جندي أمريكي يردى.

* * *

ذهب الجنرال كيسي لإجراء فحص طبي روتيني في مركز والتر ريد الطبي العسكري الذي تمتد مرافقه على مساحة شاسعة في شمال غرب واشنطن. لمح الجنرال المتقاعد جاك كين يقف في الطابور أمام مكتب قسم الأشعة.

التقت عينا الجنرالين وهلة، فأشاح كين ببصره كأنما لم يعرف كيسي.

قال كيسي: «مرحباً جاك، كيف حالك؟»، ومد يده مصافحاً. كان ينتظر لحظة كهذه. «هل اتصل بك رئيس الأركان؟».

سأل كين: «لا، لماذا؟».

«لأننا نشعر –رؤساء الأركان يشعرون– أنك تتدخل إلى درجة مبالغ فيها في تأييد سياسة لن تحاسب عليها. نحن نحاسب عليها، أما أنت فلن يحاسبك أحد. تلك هي المشكلة يا جاك».

قال كين إنه تصرف بوصفه عضواً في مجلس السياسة التابع لوزير الدفاع، حيث يفترض بأعضائه تقديم نصائحهم ومشورتهم بطريقة مستقلة. وما كان يفعله كله مجرد محاولة لمساعدة بترايوس، كما قال. لقد أيد إستراتيجية كيسي–رمسفيلد طوال ثلاث سنين. «وعند مرحلة من المراحل، لم أعد أؤيدها. أنا لا أعمل على طريقة 'الجوال الوحيد'».

قال كيسي مجدداً: «ليس من اللائق أن يتدخل جنرال متقاعد إلى هذا الحد ويؤيد سياسة ليس مسؤولاً عنها أو لن يحاسب عليها».

قال كين: «سوف أعمل بمشورتك»، لكنه لم يشر إلى أنه سيغير أسلوب عمله.

في الرابع من تموز، دعت بيلوسي مجموعة من المحاربين الجرحى لمشاهدة الاحتفال من مكتبها في مبنى الكابيتول. إذ توفر شرفتها منظراً شاملاً للشارع العريض واستعراضِ الألعاب النارية.

فقد أحد جنود مشاة البحرية رجليه، وبدا مجرد جذع يجلس على كرسي متحرك.

قال: «سيدتي رئيسة المجلس»، ومد رأسه من كرسيه ليشير إلى حيث يقسم الرؤساء اليمين: «كنت هناك في احتفال تنصيب الرئيس عام 2005، وأنشدت مع جوقة الأكاديمية البحرية».

سمع الرئيس وهو يلقي واحدة من أكثر خطب التنصيب طموحاً في التاريخ. إذ قال بوش في ذلك اليوم: «تتمثل سياسة الولايات المتحدة بالسعي إلى/ودعم الحركات والمؤسسات الديمقراطية في كل أمة وثقافة، مع الهدف النهائي المتمثل بالقضاء على الطغيان والاستبداد في عالمنا».

سألت بيلوسي الملازم الشاب في مشاة البحرية، الذي نجا من عبوة زرعت على جانب الطريق ويتعافى الآن في مركز والتر ريد بعد أن خضع لعدة عمليات جراحية: «كيف حالك؟». أجاب: «مرت علي أيام حالكة، لكني أحاول استعادة عافيتي. مرت علي شهور حالكة السواد».

حاول بترايوس العثور على بضع دقائق للمطالعة قبل النوم. وتمكن بالتدريج من قراءة كتاب بروس كاتون «غرانت يتسلم زمام القيادة»، الذي يتناول حملات الجنرال يوليسيس إس. غرانت لتحويل مجرى الأمور لمصلحة الرئيس لينكولن في أثناء الحرب الأهلية. دهش بترايوس على وجه الخصوص من طريقة غرانت في التعامل مع النكسات. فبعد اليوم الدموي الأول من معركة شيلو*، وجد الجنرال شيرمان غرانت في الهزيع الأخير من الليل يقف وحيداً في ظل شجرة تحت وابل مدرار من المطر.

قال شيرمان: «غرانت، مر علينا يوم من الجحيم، أليس كذلك؟».

قال غرانت وسيجاره يتوهج في العتمة بعد أن سحب منه نفساً سريعاً وعميقاً: «أجل. لكن سنضربهم غداً».

أصبحت عبارة «سنضربهم غداً» صيحة حشد في حلقة بترايوس الداخلية كلما أتت الأخبار السيئة، ومنها ذلك الخبر عن مقتل 160 عراقياً في تفجير عدد من السيارات المفخخة. أدهش بترايوس أسلوبُ غرانت في تلقي الضربات، واحدة إثر الأخرى، من الجنرال روبرت إي. لي، الذي رفض بكل عناد أن يتعرض للتطويق. كتب غرانت يقول: «أقترح الاستمرار في القتال على هذه الجبهة ولو تطلب خوضه الصيف كله». وغدت العبارة صيحة حشد أخرى.

سأله أحد أصدقائه: «أتظن نفسك غرانت؟».

قال بترايوس: «لا». كان يقرأ أيضاً عن الجنرال ماثيو ريدجواي، الذي ساعد في تحويل مسار المعارك في الحرب الكورية.

* معركة دموية جرت (قرب بيتسبيرغ) في 6-7 نيسان عام 1862 في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. انتهت المعركة دون نتيجة حاسمة بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة. (م).

في ربيع عام 2007، عملت أنا ومساعدي برادي دينيس على اقتفاء الملحوظات المدونة في المقابلات الرئيسة التي أجرتها لجنة بيكر-هاملتون. ومنها التقويم المتشائم والكئيب لمدير وكالة المخابرات المركزية مايكل هايدن فيما يتعلق بحكومة المالكي. قال هايدن إن «عجز الحكومة عن الحكم يبدو أمراً محتوماً يتعذر عكسه»، وأضاف إنه لا يستطيع «الإشارة إلى أي معلم أو نقطة مرجعية يمكن تغيير دفة الأمور وفقاً لهما». وقال غالبية أعضاء اللجنة إن تقويم هايدن مثّل السبب الرئيس وراء استهلال التقرير بعبارة «الوضع في العراق خطر ومتدهور».

أخذت هذه المعلومة إلى لين داوني، مدير التحرير التنفيذي لصحيفة واشنطن بوست. حتى بعد شهور من شهادة هايدن أمام اللجنة، كما قلت له، ما زالت تمثّل خبراً مثيراً ومهماً ويجب نشرها بأسرع وقت ممكن. وافقني داوني الرأي. ولأن المواد جمعت بشرط وضعها في كتاب سينشر في السنة اللاحقة، إلا أننا التقينا –أنا وداوني– مع أحد المصادر وطلبنا تغيير القواعد الأساسية. قال داوني إنه شعر بأن واشنطن بوست تعد «متهربة من أداء واجبها» إذا لم تنشر هذه المعلومة بسرعة. في البداية، رفض المصدر، لكنه أقر في نهاية المطاف بأن تقويم هايدن كان أهم شهادة موثوقة تلقتها اللجنة، وتستحق النشر.

اتصلت بعدد من مسؤولي وكالة المخابرات المركزية وسألت عن إمكانية لقائي بهايدن والتحدث عن شهادته، وهل غيّر تقويمه أم لا. رفض هايدن لقائي، واشتكى إلى لي هاملتون، السيناتور الديمقراطي الذي رأس اللجنة مع جيمس بيكر. ووفقاً لهاملتون، قال هايدن: «يعرف ودوارد الكثير عن هذه الشهادة. لقد قدمت الجانب الحالك من الوضع، وودوارد سيجعله أشد حلكة».

نشرت واشنطن بوست القصة في الثاني عشر من تموز تحت عنوان: «السي آي إيه تقول إن الوضع المضطرب يبدو أمراً محتوماً يتعذر عكسه».

في اليوم ذاته، سأل مراسلٌ الرئيسَ عن القصة في أثناء مؤتمر صحفي كان يعقده.

قال بوش: «في هذا الصباح، كان مايك هايدن يقدم لي إيجازه الأسبوعي، فسألته عن مقالة الصحيفة التي تستشهد بها. وكان جوابه أن ملحوظاته أمام لجنة بيكر-هاملتون

مختلفة قليلاً عن الشاهد الذي قرأته». ووفقاً لبوش، فإن ما يتذكره هايدن عن شهادته أمام اللجنة في تشرين الثاني 2006 هو أن «الإستراتيجية الراهنة في العراق لا تعمل بنجاح... وأننا بحاجة إلى تغيير في الوجهة». واستخدم الرئيس ما دعاه بالشهادة التي تذكرها هايدن لتدعيم قراره بتغيير الإستراتيجية. ثم تجرأ على القول علناً أول مرة: «مثلما قلت لك في تشرين الثاني الماضي، في ذلك الوقت كنت جزءاً من تلك المجموعة من الأمريكيين الذين لم يوافقوا على ما كان يحدث في العراق؛ لأن الجهود المبذولة كلها حتى ذلك الحين بدت على وشك الفشل».

كأنما كان بوش مجرد مشاهد عادي، مثله مثل الأمريكيين العاديين الذي عارضوا مسار الحرب!

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع تسعة من المصادر المطلعة.

1- John F. Burns, «Revered Mosque in Iraq Is Bombed for Second Time,» *The New York Time*, June 14, 2007, P. A1.

2- General Petraeus on Fox *News Sunday*, Fox News Transcript, June 17, 2007, www.foxnews.com

3- Presidential Documents, January 20, 2007, pp. 74-76 (Vol. 41, No. 3), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no03.html

4- شواهد هايدن مأخوذة من ملحوظات مدونة في سجل لجنة بيكر-هاملتون بتاريخ 2006/11/13.

5- محادثة هاتفية مع لي هاملتون، 2007/6/12.

6- Bob Wooward, «CIA Said Instability Seemed 'Irreversible,'» *The Washington Post*, July 12, 2007, P. A1.

7- Presidential Documents, July 12, 2007, pp. 944-956 (Vol. 43, No. 28), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no28.html

-37-

قام كين برحلة أخرى إلى العراق وقضى هناك أسبوعين من شهر تموز. أبلغه بترايوس، وغيره من الجنرالات ورئيس مكتب وكالة المخابرات المركزية أن التمرد السني ينهار. إذ إن آلافاً مؤلفة من المتمردين السنة السابقين يتعاونون مع الولايات المتحدة وقوات التحالف الأخرى. في محافظة الأنبار وحدها، انضم واحد وعشرون ألفاً من السنة، وأجاز المالكي لثمانية عشر ألفاً من المتمردين السابقين حمل السلاح وتلقي الرواتب. حضر كين اجتماعاً سرياً بين بترايوس ومرؤوسيه. ثم اجتمع الاثنان وحدهما.

أبلغ بترايوس كين أن أهم ما يفكر فيه هو شهادته أمام الكونغرس في أيلول. هناك الكثير من الأخبار السارة لديه، لكنه قال إنه سيكون حذراً ولن يبالغ في الحديث عن النجاحات. فالمبالغة كانت مشكلة في هذه الحرب منذ البداية.

نصحه كين قائلاً: «يجب أن تكون واقعياً ومعقولاً، لكن مترعاً بالأمل. لا تخف من أن تبدو مترعاً بالأمل. حاول العثور على طريقة لتكون واقعياً، لكن اكشف عن نفسك. واعلم أن أعضاء مجلس الشيوخ جماعة من المجانين، لكن جمهورك في نهاية ذلك اليوم سيكون الشعب الأمريكي، الذي ينتظر ويراقب. إنه التلفاز وقوة التلفاز. حين تتحدث إليهم، يجب أن ترسخ علاقة بهم، ومن أجل ذلك يجب أن تكشف عن نفسك قليلاً. يجب أن يشعروا بك قليلاً، من أنت، ومن تكون. دعهم يعرفون شيئاً عنك».

* * *

في يوم السبت الثامن عشر من آب، قدم كين إيجازاً سرياً إلى تشيني في مقر إقامة نائب الرئيس في جادة ماساتشوستس في شمال غرب واشنطن. وكان رئيس مجلس النواب

السابق نيوت غينغريتش قد نصح كين قائلاً: حين تقابل الرئيس أو نائب الرئيس «لا تترك شيئاً على الطاولة... عبر عن آرائك في المشكلات كلها بصراحة فتشعر بالارتياح».

مع اقتراب الموعد المقرر لشهادة بترايوس أمام الكونغرس في الشهر اللاحق، أبلغ كين تشيني: «لا أرى أي دليل على أن الإدارة، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، قد هيأت الظروف الملائمة لنجاح هذه الشهادة».

سأل تشيني: «ماذا تعني؟».

قال كين: «يتمتع وزير الدفاع بقدر هائل من المصداقية». فقد كان غيتس عضواً في لجنة بيكر-هاملتون، ووافق الكونغرس على تعيينه بالإجماع. «يجب أن يكون على أتم الاستعداد لدعم قائده الميداني وحث الزعماء الأساسيين في مجلسي الشيوخ والنواب على تأييده قبل الإدلاء بشهادته، أي تهيئة الظروف الملائمة». وأضاف إن بترايوس لم يحصل على العون لا من رئيس هيئة الأركان المشتركة، ولا من القادة أنفسهم، ولا من الأدميرال فالون قائد القيادة المركزية، ولا من فريقه. ولم يكن الدعم الحقيقي يأتي إلا من الرئيس ونائب الرئيس. وهذا أمر مهم، لكن على الآخرين تأييده ومساعدته طوعاً.

مثّل فالون على وجه الخصوص مشكلة حقيقية لكين. «أنا أول من رشح اسم فالون، لكنه يمارس ضغطاً متواصلاً على بترايوس. ويدفعه إلى إجراء أنواع التحليلات كلها للخروج في وقت مبكر أو سحب عدد كبير من القوات» كما أبلغ تشيني. وأشار إلى التقرير الذي أصدره الأدميرال وينفيلد بعد أن طلب منه فالون تقويم الوضع في العراق، فقد أضعف موقف بترايوس. «ما حدث لفالون أنه قبل الهموم والمخاوف السياسية في واشنطن كلها... أتفهم ذلك إلى درجة معينة. لكن في مقابل القدوم إلى هنا وتقوية عزيمة رؤساء الأركان، ضعفت عزيمته هو بالآراء السائدة في واشنطن وآراء رؤساء الأركان. فانعكس ذلك كله على بترايوس».

منذ أن وصل بترايوس إلى العراق، كما قال كين «أصبح رؤساء الأركان أكثر اهتماماً بتجاوز الجيش ومشاة البحرية أقصى ما لديهما من طاقة بدلاً من التركيز على الفوز بالحرب. وهم لا يقولون ذلك بتلك الطريقة»، لكن هكذا فهم بترايوس. «وحقيقة أن

الجيش يتعرض للضغط والتوتر أمر متوقع في أثناء الحرب. وهذا هو سبب وجوده». فإذا تجاوز أقصى ما لديه من طاقه حين يخوض حرباً نشعر بضرورة الفوز بها، فليكن ذلك كما قال. فقد حدث هذا في الحروب السابقة.

صمتُ تشيني المميِّز له دعا إلى المزيد.

قال كين: «سأتكلم بصراحة. الوزيرة رايس تجوب العالم متصديةً لقضايا السياسة الخارجية، لكن أين تقف فيما يتعلق بالعراق؟ لست متيقناً. ولا أظن أنها على استعداد لإلحاق الضرر بسمعتها حول هذه القضية». يجب عليها مساعدة السفير ريان كروكر، الذي سيقف أمام الكونغرس مع بترايوس.

حاول كين أن يشرح السبب الذي يجعل الافتقار إلى الدعم والمساندة مؤثراً في بترايوس. «في العادة، يعطي القائد العسكري الناجح نتائج كما هو واضح. وهذا هو معنى النجاح. وهذا يعني أيضاً أنه يساعد سلسة القيادة المكونة من رؤسائه. إذ يملؤهم الفخر به، مما يعزز بالتأكيد مكانة المؤسسة المسؤولة. وحين ينجح، يحظى دوماً بدعم سلسلة القيادة».

أما المفارقة، كما قال كين، فهي أن بترايوس حصل على قيادة قتالية لجنرال بأربع نجوم «لحملة حربية، والتعامل مع قضية تصب بكل وضوح في المصلحة الوطنية، حيث الرهانات مرتفعة جداً... وعند تلك النقطة، توقفت سلسلة القيادة عن دعمه ومساندته أول مرة في حياته المهنية، حيث يؤدي أهم وظيفة قام بها سابقاً أو سيقوم بها لاحقاً. وكان تأثير ذلك كله مدهشاً ومربكاً بالنسبة إليه».

قال كين إن المسألة لا تقتصر على رئيس بترايوس المباشر، الأدميرال فالون، بل برئيسي فالون أيضاً –الجنرال بيس الذي لن يتقاعد قبل الخريف، وغيتس الذي لم يساعد بترايوس كما يجب. «علينا جميعاً أن نكون صفاً واحداً خلفه –وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية. ويجب ألا يوضع العبء على عاتق هذين الرجلين [بترايوس وكروكر] فقط، فيضطران للقدوم إلى هنا ويتحولان إلى جسر تعبر عليه الإدارة».

قال تشيني أخيراً: «نستطيع تقديم العون هنا. يمكننا المساعدة هنا».

دام الحديث قرابة ساعة ونصف الساعة. وفي أثناء اللقاء، أطلت لين تشيني، زوجة نائب الرئيس، برأسها وقالت بهدوء مذكرة زوجها: «تذكر، يجب أن نكون هناك بعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة».

ومع أن كين اتبع نصيحة نيوت غينغريتش بالتشبث بالصراحة دوماً إلا أنه تساءل هل تجاوز الحدود هذه المرة –حيث انتقد وزيري الدفاع والخارجية معاً.

بعد بضعة أيام، وفي أثناء لقاء عبر نظام الفيديو الآمن عقد مع بغداد، قال الرئيس إنه قلق من أنهم لا يقومون بما يكفي لمؤازرة بترايوس وكروكر، وموعد شهادتهما يقترب بسرعة، وعلى كل فرد في الإدارة، حتى هو نفسه، أن يساعد طوعاً على إنجاحها.

حين استقال دان بارتليت في أوائل الصيف، تولى إد غيليسبي، ممثل جماعات الضغط السابق ورئيس لجنة الجمهوريين الوطنية، منصب مستشار بوش في البيت الأبيض ومدير الاتصالات.

كان غيليسبي قد سأل بارتليت: «أين لوحة جدول المواعيد؟»، مشيراً إلى البرنامج الذي أمل في وجوده في البيت الأبيض؛ لبيان كيف يمضي الرئيس وقته وجدول إلقاء خطبه ومضمونها.

قال بارتليت ضاحكاً: «لا توجد واحدة».

أراد غيليسبي (46 سنة)، الأيرلندي اللطيف الذي جمع الملايين من تمثيله جماعات الضغط، أن يكون إستراتيجياً. فشجع الرئيس على إلقاء سلسلة من الخطب التي تثير انتباه الجمهور، وتؤكد الرهانات المرتفعة في العراق، وتقدم الدعم والمساندة إلى بترايوس وكروكر.

في الثاني والعشرين من آب تحدث بوش أمام المؤتمر الوطني لقدامى المحاربين في مدينة كنساس (بولاية ميسوري)، وعقد مقارنة غير عادية بين فيتنام والعراق [1].

«التركة الواضحة التي لا لبس فيها لحرب فيتنام هي ثمن انسحاب أمريكا الذي دفعه الملايين من المواطنين الأبرياء، الذين نحتت تباريحهم مصطلحات جديدة أضيفت إلى مفرداتنا، مثل 'شعب القوارب'، و'معسكرات إعادة التثقيف'، و'ميادين القتل'. والسؤال الذي نواجهه الآن هو: هل يقاوم الجيل الحالي من الأمريكيين إغراء التراجع؟». ثم أضاف: «وخلافاً لفيتنام، إذا انسحبنا قبل استكمال المهمة، فإن هذا العدو سيلاحقنا إلى ديارنا».

بعد ستة أيام، ظهر الرئيس في المؤتمر السنوي للمنظمة الأمريكية للمحاربين القدماء الذي انعقد في رينو (بولاية نيفادا)، وقال إن الانسحاب من العراق سيترك «منطقة معروفة بالاضطراب والعنف مهددة بشبح محرقة نووية» [2].

في يوم الخميس الرابع والعشرين من آب، أفرجت الاستخبارات الأمريكية عن بعض الأحكام التقويمية المهمة وغير السرية ضمن تقديراتها الاستخبارية الوطنية للوضع في العراق. وجد التقويم «تحسناً قابلاً للقياس لكن غير متكافئ» في الوضع الأمني. ومع أن مستوى العنف قد تراجع، إلا أنه بقي «مرتفعاً». وعلى الجبهة السياسية، قالت وكالات الاستخبارات إن «المجموعات الطائفية في العراق تبقى غير قابلة للتصالح» [3].

ولم يشمل التقرير العلني التقويم الذي يشير إلى أن «فرصة المالكي في البقاء في منصبه مدة تراوح بين ستة أشهر واثني عشر شهراً تقل عن نسبة 50%»، وذلك وفقاً لأحد كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكية. فضلاً على ذلك كله، يعاني المالكي «مشكلات صحية حقيقية... تشير إلى أن حالته تتدهور»، تبعاً للمسؤول نفسه.

مع انقضاء شهور الصيف، انتظر بترايوس تغير مسار الأمور. وفي كل يوم سبت، يوزع فريق العاملين معه أحدث مخطط بياني يظهر ارتفاع أو انخفاض مستوى العنف. ففي أثناء الأسبوعين الأخيرين من حزيران، انخفض عدد الهجمات بأكثر من ثلاث مئة هجوم، ثم ارتفع قليلاً في الأسبوع اللاحق. وبعدها ارتفعت الأرقام، ثم بقيت تنخفض

بثبات طوال ما تبقى من آب. وبحلول نهاية الصيف انخفض العدد من 1550 هجوماً في الأسبوع إلى أقل من 800 –أي بنسبة 50% تقريباً، لكن المعدل الوسطي بقي خمسة في الساعة الواحدة.

لماذا انخفض حجم العنف هذا الانخفاض اللافت؟

على أحد المستويات، بدأت الزيادة في عدد الجنود تمارس تأثيرها المقصود. فمضاعفة عدد القوات الأمريكية داخل بغداد وحولها من 17000 إلى قرابة 40000 تركت تأثيراً واضحاً، مثلما يحدث في أي مدينة. إذ تمكن الآلاف من الجنود الإضافيين، مقترنة بخطة بترايوس لمكافحة التمرد، من تهدئة حدة العنف الطائفي وغيره من أساليب العنف التي ميزت الثمانية عشر شهراً الماضية. وأقيمت قرابة 30 محطة أمنية مشتركة حول بغداد بحلول صيف عام 2007. وتحسن الأمن على طول الحدود مع إيران وسوريا، وتحسن أداء الجيش العراقي.

لكن الحقيقة الكاملة لم تكن بهذه البساطة. فهناك ثلاثة عوامل أخرى على الأقل حظيت بأهمية مماثلة، أو تفوقت في الأهمية على الزيادة في عدد القوات.

بدءاً من شهر أيار عام 2006 تقريباً، شنت القوات الأمريكية ووكالات الاستخبارات الأمريكية سلسلة من العمليات السرية مكنتها من تحديد أماكن أفراد مهمين ونافذين في الجماعات المتطرفة (مثل القاعدة)، والتمرد السني، والمليشيات الشيعية المرتدة، أو ما يسمى بالمجموعات الخاصة، ثم استهدافهم وقتلهم. ودمجت العمليات، التي كانت إما من نوع «برامج الوصول الخاصة»، أو جزءاً من «المعلومات المصنفة الخاصة»، بعضاً من أكثر الأساليب والمعلومات سريةً لدى الحكومة الأمريكية.

طلب مني كبار الضباط العسكريين والمسؤولين في البيت الأبيض عدم نشر التفاصيل أو الأسماء الرمزية المرتبطة بالبرامج الرائدة المبتكرة. وقدموا الحجة على أن نشر الأسماء وحده قد يؤدي إلى فضح الأسرار التي أفادتنا كثيراً في العراق. ولأن الكشف عن تفاصيل مثل هذه العمليات يمكن أن يضعف استمرار استخدامها، اخترت عدم التطرق

إليها بمزيد من التفصيل هنا. لكن عدداً من المصادر الموثوقة تقول إن هذه الأنشطة السرية مارست تأثيراً واسع النطاق في العنف ويمكن أن تمثل العامل الأكبر في تخفيض مستوياته. وأكد عدد من هذه المصادر أن نسبة راوحت بين 85-90% من العمليات الناجحة و«المعلومات الاستخبارية الفاعلة والواقعية» نتجت عن هذه الأساليب والعمليات والمصادر الجديدة. وقال آخرون إن النسبة مبالغ فيها، لكنهم اعترفوا بأهميتها. مرة أخرى، كان الإبداع الأمريكي الابتكاري هو الذي حقق الميزة والتفوق.

استخدم الجنرال ستانلي مكريستل، قائد قيادة العمليات الخاصة المشتركة، المسؤولة عن مطاردة القاعدة في العراق، استخدم ما دعاه أسلوب «الحرب التعاونية»، القائم على الاستفادة من كل أداة متاحة ووسيلة متوافرة بنحو متزامن، من التنصت على الإشارات السلكية واللاسلكية إلى المعلومات الاستخبارية البشرية وغيرها من الأساليب التي تتيح القيام بعمليات بسرعة البرق ومتزامنة أحياناً. أما ديريك هاريفي، خبير وكالة استخبارات الدفاع ومستشار بترايوس، فقد قال سراً إن العمليات كانت فاعلة إلى حد أنها منحته «لذة الجماع».

حين سألت بوش فيما بعد عن ذلك، قدم إجابة بسيطة: «قيادة العمليات الخاصة المشتركة ممتازة».

العامل المهم الثاني في تخفيض مستوى العنف هو صحوة الأنبار، حيث انقلب عشرات الآلاف من السنة على القاعدة وانضموا إلى القوات الأمريكية. ارتكبت القاعدة أخطاء إستراتيجية في المحافظة، وقضت المبالغة في الثقة بالذات على فرصتها بالنجاح. فقد تزوج أعضاؤها نساء العشائر المحلية بالقوة، واستولوا على المستشفيات، واستخدموا المساجد لعمليات قطع الرؤوس، وقصفوا الملاعب بمدافع الهاون، ونفذوا أحكام الإعدام بالمواطنين، وتركوا الجثث المقطوعة الرؤوس في الشوارع وكتبوا عليها: «لا ترفع هذه الجثة وإلا ستلقى المصير نفسه». وأدت الأساليب الوحشية إلى إضعاف معظم التأييد المحلي للتنظيم.

وطوال عدة شهور، عملت القوات الأمريكية مع زعماء العشائر، الذين قاتلوا الأمريكان ذات يوم، للمساعدة على بناء قوات أمنية محلية في شتى أرجاء المحافظة.

أبلغني الشيخ أحمد أبو ريشة، الذي تحالف شقيقه الأصغر مع القوات الأمريكية أولاً قبل أن يلقى حتفه، ويرأس الآن مجلس الصحوة العراقية: «نحن الذين أنقذوا الوطن. ونحن قادرون على مقاتلة القاعدة» [4].

وبدأت القيادة العسكرية الأمريكية تأليف مجموعات من آلاف الرجال الذين دعاهم بترايوس «المواطنين المحليين المعنيين» (وعرفوا فيما بعد باسم «أبناء العراق»)، وهي مجموعات تحرس الأحياء وتحمي سكانها وتقدم المعلومات الاستخبارية إلى القوات الأمريكية والعراقية.

التحول الثالث المهم حدث في التاسع والعشرين من آب، حين أمر مقتدى الصدر جيش المهدي القوي بتعليق عملياته، ومنها الهجمات على الجنود الأمريكيين. عرف بترايوس وغيره أن ذلك لم يكن إحساناً من الصدر، فقد تبع أمره قتالاً جرى بين جيش المهدي والقوات العراقية في مدينة كربلاء المقدسة، قتل فيه 50 من الحجاج الشيعة الذي احتشدوا هناك للاحتفال بإحدى المناسبات الدينية السنوية، وجُرح 275 منهم. وكان أمر الصدر بتعليق نشاطات جيشه طوال ستة أشهر ضربة حظ مفاجئة للأمريكيين، ضمن سلسلة من الأحداث السعيدة صبت كلها في مصلحتهم.

في أثناء تلك المدة، حصلت وكالات الاستخبارات الأمريكية على معلومات مستفيضة عن رئيس الوزراء المالكي، وأفراد فريقه ومساعديه وغيرهم داخل الحكومة العراقية. ويعتقد بعض المسؤولين المطلعين على جمع المعلومات الاستخبارية عن المالكي أنها توفر نظرة شفافة إلى أعماله وأفعاله.

قال أحد المصادر: «نحن نعرف كل ما يقوله».

وقال آخر إن المالكي ومساعديه اشتبهوا، بل عرفوا هذا الرصد والمراقبة، ولذلك التزموا جانب الحذر في أحاديثهم المتبادلة، واتخذوا إجراءات مضادة. في بعض الحالات المعينة، كما أضاف، قدمت المصادر البشرية إلى كبار المسؤولين الأمريكيين تحذيرات ومعلومات عن مواقف رئيس الوزراء، وخططه، ومناوراته، وأعماله السرية، ومساعديه وموظفيه في الحكومة العراقية.

وقال المصدر عن عمليات رصد المالكي ومراقبته: «من المتعذر الحصول على الشفافية المطلقة... ولا يمكن معرفة ما يدور في رأسه. فحين يتكلم، لن تشتبه أنه يخدعك. لدينا الكثير —الكثير- من الرؤى المتعمقة، لكن المعرفة المطلقة أمر مستحيل. ولن أقدر على القول إنني أعرف تماماً كل ما يفعله المسؤولون العراقيون».

وقال مصدر ثالث إن رصد المالكي ومراقبته أكثر من مجرد عملية روتينية.

وأدرك مصدر رابع حساسية القضية، وسأل: «ألم يكن من الأفضل لو امتنعنا عن مراقبته حركاته وسكناته ورصدها؟».

من المنطقي تماماً جمع المعلومات الاستخبارية عن الأعداء المعروفين أو المشتبه فيهم. لكن التجسس على الأصدقاء والحلفاء، خصوصاً في ديمقراطية فتية تعهدت الولايات المتحدة بمساعدتها (مع أنها غير مسبوقة) تثير أنواع الأسئلة كلها. ومن المؤكد أن الوكالات الاستخبارية مغرمة بمعرفة ما يجري في الحلقة الداخلية، لكن عدداً من كبار المسؤولين قالوا: «ما المكسب؟ وهل يستحق المجازفة؟». لم تتضح فائدة هذه المعلومات للرئيس بوش. ومثلما يتعذر على الولايات المتحدة الانتصار في العراق عن طريق القتل، كما قال الجنرال بترايوس، فإن من المستحيل على الأرجح أن تحقق الاستقرار السياسي —الهدف النهائي- عن طريق التجسس.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أحد عشر مصدراً من المصادر المطلعة.

1- Presidential Documents, August 22, 2007, pp. 1107-1114 (Vol. 43, No. 34), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no34.html2-

Presidential Documents, August 28, 2007, pp. 1124-1131 (Vol. 43, No. 35), www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no35.html

NIE, «Prospects for Iraq's Stability: Some Security Progress but Political -3 Reconciliation Elusive,» August 2007,
www.dni.gov/press_releases/20.

4- مقابلة مع الشيخ أحمد أبو ريشة، 2008/6/3.
انظر أيضاً:
Sterling Jensen, «Lessons from an Anbar Sheik,» The Washington Post, September 29, 2007, P. A19.

-38-

في التاسع والعشرين من آب 2007، كتب مساعد بترايوس، الضابط السابق في الجيش الأسترالي، والخبير المعروف في مكافحة التمرد، ديفيد كيلكولن، على أحد مواقع الويب: «قضينا السنوات الأربع الأخيرة نبني بكل عناية/وندعم نظاماً سياسياً عراقياً لا يعتمد على المؤسسات القبلية/العشائرية». ولاحظ أن سلطة التحالف المؤقتة، بإدارة بول بريمر، همشت العشائر عام 2003؛ لكي تركز على بناء دولة ديمقراطية «حديثة» في العراق [1].

لكننا الآن، كما كتب: «نشهد التقدم السياسي والأمني الأهم منذ سنين، وذلك عبر بنية هيكلية خارج تلك التي بذلنا جهداً دؤوباً لإيجادها. فهل يبطل ذلك جهود السنوات الأربع الأخيرة؟ لا على الأرجح، طالما ندرك أن رؤية إقامة ديمقراطية «حديثة» (بمدلول البلدان الصناعية الغربية) بحسب نموذج جيفرسون، تعتمد اعتماداً كلياً على المؤسسات غير القبلية، فستظل على الدوام رؤية غير واقعية إلى حد ما. ففي الكيان السياسي العراقي، قد ينتهي الأمر بحقوق العشائر وهي تلعب دوراً يشبه حقوق الولايات في الديمقراطيات الأخرى».

أضاف كيلكولن: «وبصراحة تامة، فإن النمط الذي نشهده يناقض ما توقعناه من الزيادة في عدد القوات إلى حد ما... فالمفهوم الأصلي تمثل في قيامنا (التحالف والحكومة العراقية) بإيجاد وضع أمني مستقر، يوجد بدوره حيزاً لعقد 'صفقة كبرى' على المستوى الوطني. وبدلاً من ذلك، نرى النقيض بالضبط: سلسلة من الصفقات السياسية أدت إلى طرد المتطرفين، وأنتجت تحسناً رئيساً في الأمن على المستوى المحلي، والحكومة الوطنية تقفز إلى السفينة لتلحق بالركب. وبدلاً من إجراء مصالحة بقيادة التحالف تتجه من القمة إلى القاعدة، فإن هذه المصالحة جرت بقيادة عراقية، ومن القاعدة إلى القمة،

اعتماداً على المجتمع المدني لا على السياسة الوطنية. ومن الغريب أنها تعمل بنجاح على ما يبدو إلى الآن».

في الختام، قال كيلكولن إن الولايات المتحدة، بغض النظر عما تصورته أو أملت فيه من الزيادة، قبلت الحلول التي اختارها العراقيون بأنفسهم. «مهمتنا هي تقديم الدعم كلما دعت الحاجة، وضمان وجود إجراءات حماية سياسية مناسبة، ومعايير مطبقة لحقوق الإنسان، لكن علينا في نهاية المطاف إدراك أن ذلك كله سيتبدى بطرق جيدة أو سيئة، لكن غير قابلة للتوقع في الجوهر».

أراد فالون أن يستبدل ببترايوس قائداً آخر للقوات في العراق في خريف ذلك العام. كان بترايوس يتعرض لكثير من الضغوط. تلك كانت المرة الثالثة التي يخدم فيها في العراق، فقد أمضى فيه أربع سنين تقريباً من السنوات الخمس الماضية، وحمل عبء العالم كله على كتفيه، وعانى الإجهاد والتوتر، ولم ينل ما يكفي من النوم والراحة.

تذكر فالون صور رجال البحرية في الحرب العالمية الثانية، التي غطت جدران مبنى قيادة المحيط الهادي في هاواي عندما عمل قائداً لها. كان الأدميرال مارك ميتشر في التاسعة والخمسين حين عاد إلى الولايات المتحدة عقب انتهاء الحرب، لكنه بدا في التسعين، وتوفي بعد سبعة شهور.

أما الأدميرال جون إس. مكين، جد سيناتور أريزونا، فقد عانى إجهاداً فظيعاً في أثناء حرب المحيط الهادي، فانخفض وزنه عند انتهائها إلى 45 كغ فقط. ثم حضر مراسم استسلام اليابان في الثاني من أيلول عام 1945، وتوفي بأزمة قلبية في كاليفورنيا بعد أربعة أيام.

كان ضرر حرب العراق لا يصدق، وطحنت برحاها بترايوس.

فيما بعد، أصر فالون على أنه أوصى غيتس باستبدال بترايوس. لكن غيتس أنكر الواقعة كما أبلغ مساعديه.

في صبيحة الإثنين، العاشر من أيلول، ظهر إعلان على مساحة صفحة كاملة في نيويورك تايمز ينتقد بترايوس قبل ساعات من تقديم شهادته أمام الكونغرس. وضعت الإعلان جماعة ليبرالية سياسية تدافع عن الحقوق تدعى «موف أون. أورغ» (MoveOn.org).

كُتب بالأحرف الكبيرة تحت صورة بترايوس: «الجنرال بترايوس أم الجنرال الذي خاننا» *. «الجنرال بترايوس رجل عسكري في حرب مستمرة مع الحقائق» [2].

صدم بترايوس بمثل هذا التهجم الشخصي، فهو علامة دالة على مدى فظاظة المشاعر المعادية الحربَ وما وصلت إليه من قوة وانتشار.

وحين فتح بريده الإلكتروني ذلك الصباح، اكتشف أن امرأة من بلدته كورنوال –أون– هدسون، قد أرسلت إليه نسخة من قصيدة روديارد كيبلنغ «لو»:

لو تستطيع الحفاظ على رأسك، عندما

يفقد من حولك رؤوسهم ويلومونك على فقدها...

وحين تابع القراءة، اتخذت الأبيات مدلولاً شخصياً:

لو تتمكن من مواجهة النصر والكارثة

وتعامل هذين المخادعين بالتساوي

لو استطعت تحمل الحقيقة التي نطقتها وسماعها

وقد حرفها الخبثاء لجعلها فخاً للبسطاء...

بعد ظهر ذلك اليوم، وصل بترايوس وكروكر إلى غرفة الاستماع الشبيهة بالمغارة في مبنى كانون هاوس أوفيس، بزخارفها الذهبية، وستائرها السميكة، وثرياتها الضخمة. وكانت حشود المراسلين ومصوري التلفاز، والمحتجين، قد وصلوا قبل ساعات ليملؤوا كل بوصة من الغرفة ويعطوا المناسبة جو السيرك. وجلبت مقاعد مطوية لاستيعاب أكثر من مئة من أعضاء مجلس النواب، حيث سيمنح كل منهم فرصة سؤال الجنرال والسفير.

* ثمة لعب على الألفاظ في الإعلان. إذ تحول اسم بترايوس Petraeus إلى betray us بمعنى خاننا أو خدعنا. (م)

قال ديفيد غيرغن، المستشار السابق لخمسة رؤساء أمريكيين، على محطة سي إن إن إنها «أهم شهادة لأي جنرال منذ أربعين سنة» [3].

في الساعة 1:30 تقريباً بدأ بترايوس قراءة بيانه الافتتاحي. وأمكنه سماع أزيز كاميرات المصورين، كأنها أصوات مكتومة لمدافع رشاشة.

أصابه فجأة شعور غريب بالاستخفاف بالذات وهو يتلو بيانه. كانت لحظة غريبة تساءل فيها عما يفعله هنا، تجربة أتته من خارج الجسد.

مع استمرار الجلسة، أحس بأن مقعده منخفض فاضطر إلى الجلوس منتصب الظهر، كأنه في وضعية استعداد، وقد وضع يديه على الطاولة أمامه. بدأ ظهره يؤلمه، فتناول في أثناء الاستراحة أقراصاً مهدئة للألم.

على مدى ساعات ذلك النهار الطويل التي امتدت إلى الليل، اتسم بترايوس وكروكر بالهدوء والتعقل والاتزان والتأني، وأجابا عن كل سؤال يمكن تصوره عن الحرب. قال بترايوس إن تقدماً كافياً تحقق إلى حد أن إحدى وحدات مشاة البحرية التي نشرت بوصفها جزءاً من الزيادة في عدد القوات سوف تغادر ذلك الشهر، ليتبعها في كانون الأول إعادة نشر أحد ألوية الجيش. ومع ذلك، حذر من مغبة التعجل بالانسحاب. وشبه المهمة في العراق «ببناء أضخم طائرة في العالم وهي تطير، وهي تتعرض لإطلاق النار» [4].

في عدد اليوم اللاحق قالت صحيفة واشنطن بوست على صدر صفحتها الأولى: « يؤيد بترايوس انسحاباً أولياً؛ الجنرال يمتدح التقدم المتحقق، ويحذر من استعجال الفشل». امتُدحت الشهادة بوصفها معقولة وقابلة للتصديق. وتمكن بترايوس وكروكر من منح الرئيس مزيداً من الوقت [5].

في ذلك الصباح، الذكرى السادسة لهجمات الحادي عشر من أيلول، ذهب بترايوس وكروكر إلى مجلس الشيوخ لعقد جلسة استماع ماراثونية أخرى. ثم دعا بوش زعماء الكونغرس إلى البيت الأبيض لمناقشة شهادتي بترايوس وكروكر، وسماع آرائهم عن العراق. بدا الرئيس مفعماً بالنشاط والحيوية، فقد كان أداء جنراله وسفيره جيداً.

لاحظ لاري ريد (ديمقراطي من ولاية نيفادا)، زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، الذي رفض الحرب وانتقد بوش، وهو يجلس بجانب الرئيس في القاعة، أمارات الجرأة والتباهي على وجهه. واعتقد أنها لا تليق بهذه المناسبة السنوية الحزينة [6].

قال بوش إن الجهاديين الإسلاميين المتطرفين يستخدمون الحرب أداة حشد وتعبئة، برغم أن ذلك لم يقلقه كما بدا. «بالطبع، تحتاج القاعدة إلى مجندين؛ لأننا نقتل أعضاءها»، كما قال مع ابتسامة واهية. وأضاف: «نحن نقتلهم، كلهم».

التقى جاك كين مع نائب الرئيس في الجناح الغربي يوم الخميس الثالث عشر من أيلول، بعد يومين من انتهاء بترايوس وكروكر من الإدلاء بشهادتيهما. جلس الجنرال في مقعد أمام مكتب نائب الرئيس وعبر مرة أخرى عن قلقه من الضغط المتواصل على بترايوس من رؤساء الأركان، والأدميرال فالون، وموظفيهم، الذين يقوِّمون عمله، ويصرون على الدراسات والتقارير لتبرير طلب حتى أقل عدد من القوات الإضافية.

فجأة، دخل بوش مع كبير موظفيه جوش بولتون. تبادل الجميع التحية. وغادر بولتون الغرفة.

قال بوش وهو ينظر حوله بإعجاب: «أتعلم يا ديك، لديك مكتب جميل هنا». وبدا كأنه يزور مكتب تشيني أول مرة مع أنه لا يبعد أكثر من مئة خطوة عن المكتب البيضاوي.

قال تشيني مشيراً إلى السنوات الثماني التي قضاها والد بوش نائباً لريغان بين عامي 1981-1989: «السيد الرئيس، كان هذا مكتب والدك».

قال بوش وهو يحدق حوله: «أجل. حسناً. يبدو مختلفاً قليلاً».

التفت الرئيس إلى كين، وقال لنائب رئيس هيئة أركان الجيش السابق: «أعلم أنك تتحدث مع ديف. أنا أحترم سلسلة القيادة».

اعتقد كين أن هذا يعني أن الرئيس شعر بأنه لا يستطيع استدعاء بترايوس مباشرة، نظراً إلى ضرورة حضور غيتس والأدميرال فالون أيضاً.

قال بوش: «أعرف أن لدى رؤساء الأركان والبنتاغون بعض المخاوف. أحدها يتعلق بالجيش ومشاة البحرية وتأثير الحرب فيهما، والآخر بالحالات الطارئة والافتقار إلى» قوات للرد الإستراتيجي على تلك الحالات الطارئة.

قال كين: «السيد الرئيس، مع الاحترام كله، وفيما يتعلق بالحالات الطارئة، لا أرى كيف يمكن لخسارة الحرب في العراق أن تساعدنا على التصدي لأي من هذه الحالات الطارئة المحتملة. وهذا ما نخاطر به حين لا نركز الجهد كله على الحرب». فالهزيمة، أو أي علامة دالة على الضعف سوف تزعزع العلاقات مع الحلفاء، خصوصاً تلك المضطربة أصلاً، كما قال، وتشجع الأعداء على المغامرة. «يبدو لي أن علينا كسب الحرب أولاً».

أومأ بوش رأسه موافقاً.

كرر كين التعبير عن قلقه من الضرر الذي يسببه رؤساء الأركان، ومسؤولو القيادة المركزية، وفالون، لبترايوس والعبء الذي يحمله والضغط الذي يتعرض له. «لا يكون من تربى في ثقافة عسكرية مستعداً كثيراً لمواجهة سلسلة قيادة لا تدعمه، ومع ذلك يحقق النجاح. في العادة يتعرض للطرد. الأضواء مسلطة كلها على بترايوس، ومن الواضح أن المصلحة الوطنية للولايات المتحدة ومصداقيتها على المحك، وهو يمشي على حد السيف، دون أن يجد من يمد له يد المساعدة». أما النتيجة، كما قال، فهي أن بترايوس: «يبدأ بالبحث عن طرق للتخلص من هذا الضغط، وهذا يعني نوعاً من التكيف». والدليل أنه وافق على سحب لواء بحلول كانون الأول.

قال الرئيس إنه يريد أن يسلم كين رسالة شخصية إلى بترايوس من القائد العام. وعرض أفكاره وودعهما وغادر.

ذهب كين إلى الردهة الكبيرة في الجناح الغربي، وجلس بين الأرائك والمقاعد ودوّن كلمات الرئيس. ثم اتصل ببترايوس وقال إن عليهما الاجتماع.

في تلك الأمسية، قدم الرئيس في خطبة بثت للأمة على التلفاز تقويماً متفائلاً للوضع. وقال إن بترايوس وكروكر استنتجا أن «الظروف تتحسن في العراق، وأننا استولينا على زمام المبادرة من العدو، وأن الزيادة في عدد القوات تحقق نجاحاً».

وأشار إلى نقطة التحول المفصلية التي حدثت في محافظة الأنبار بمساعدة العشائر المحلية. وفي بغداد، كما قال «تراجعت حدة أعمال القتل الطائفية، وبدأت الحياة العادية تعود مجدداً».

وأضاف إن أمام الحكومة العراقية شوطاً طويلاً لتقطعه، لكن المكاسب على الصعيد الأمني سوف تتيح للولايات المتحدة عدم استبدال قرابة 2200 رجل من مشاة البحرية من المقرر أن يغادروا الأنبار في وقت لاحق من أيلول، وإعادة لواء مقاتل من الجيش إلى أرض الوطن بحلول عيد الميلاد. وقال إن بترايوس يتوقع أن يتمكن من تخفيض مستويات القوات من عشرين لواء مقاتلاً إلى خمسة عشر بحلول شهر تموز من عام 2008، مما يعني أن الجنود الإضافيين الذي أرسلوا سوف يعودون إلى الوطن.

شرح بوش قائلاً: «المبدأ الهادي لقراراتي المتعلقة بمستويات الجنود في العراق هو العودة اعتماداً على النجاح. فكلما زاد نجاحنا، زاد عدد الجنود الأمريكيين الذين يمكن إعادتهم إلى الوطن». وقال إنهم لن يعودوا كلهم؛ لأن «النجاح سوف يتطلب انخراط الولايات المتحدة السياسي والاقتصادي والأمني ردحاً من الزمن يتجاوز مدة رئاستي...».

«يقول بعضهم إن المكاسب التي نحققها في العراق أتت متأخرة جداً؛ لكنهم مخطؤون. إذ لا يعد مكسباً متأخراً توجيه ضربة إلى القاعدة، وتشجيع الحرية، وتقديم الدعم لجنودنا في قتال يمكنهم الانتصار فيه» [7].

في مؤتمر صحفي عقده غيتس في اليوم اللاحق، الرابع عشر من أيلول، ذكر أنه يأمل أن يتمكن من تخفيض عدد القوات في العراق إلى مئة ألف بحلول نهاية عام 2008 [8]. تجاوز حجم التخفيض الكبير ما وافق عليه بترايوس أو بوش. وظهرت تعليقاته على الصفحات الأولى من الجرائد الصادرة في مختلف أرجاء البلاد في اليوم اللاحق، مع عناوين مثل: «غيتس يسعى إلى تخفيض أكبر في عدد القوات» [9].

اتصل بترايوس بالمساعد العسكري لغيتس، الجنرال بيت تشياريللي.

قال: «ما هذا الذي يحدث؟».

أجاب تشياريللي: «آه، لا تقلق. يعرف الأمر. لا بأس. انجرف قليلاً. سوف نصلح المسألة».

فيما بعد، قال وزير الدفاع إنه لم يجد طريقة لتخفيض عدد القوات إلى مئة ألف بحلول الوقت الذي يترك فيه بوش منصبه. واعترف علناً: «العملية ستكون أكثر بطئاً». ولدى بترايوس خطة مفصلة، والحكومة العراقية والقوات الأمنية تحقق تقدماً، وهو لا يريد الاستعجال. وأضاف: «يجب أن نعمل خطوة خطوة».

في يوم السبت الخامس عشر من أيلول، ذهب كين إلى قاعدة فورت ماير في أرلنغتون (بولاية فرجينيا)، حيث يقيم بترايوس وزوجته هولي في مسكن مقدم من الجيش. وكان بترايوس سيتوجه قريباً إلى بغداد.

جلس الرجلان وحدهما، ووصف كين لقاءه مع الرئيس ونائب الرئيس. ثم أخرج صفحة من الورق كان قد كتب عليها رسالة الرئيس إلى بترايوس وقرأها جهراً:

«أحترم سلسلة القيادة. أعلم أن لدى رؤساء الأركان والبنتاغون بعض المخاوف المقلقة. أحدها يتعلق بالجيش ومشاة البحرية وتأثير الحرب فيهما. والآخر يتعلق بالحالات الطارئة والافتقار إلى رد إستراتيجي على تلك الحالات الطارئة».

«أريد أن يعلم ديف أنني أريده أن يفوز. هذه هي الرسالة. وسيحصل على القوة التي يحتاج إليها طوال مدة حاجته إليها».

«وحين يشعر بأنه يريد إجراء مزيد من التخفيض، عليه أن يعتمد في قراره على الظروف التي يعتقد أنها تبرره في العراق. وبالنسبة إلى القضيتين المقلقتين اللتين ناقشناهما هنا في واشنطن –العمليات الطارئة وحاجات الجيش ومشاة البحرية– يجب ألا يشغل باله بهما، فهما من اختصاصي».

«لا أريد تغيير الإستراتيجية قبل أن تنجح. لقد انتظرت أكثر من ثلاث سنين لتطبيق إستراتيجية ناجحة. ولن أتخلى عنها قبل الأوان. ولن أجري أي تخفيضات إضافية إلا إذا اقتنعت أنت بجدواها».

كانت رسالةً تعبر عن الدعم الكامل، ولن يطالب أي قائد ميداني بأكثر منها. وحقيقة أن بوش أرسلها عبر القنوات الخلفية، أو حتى مجرد إرسالها، تكشف عمق الخلافات وحدتها بين الرئيس والمؤسسة العسكرية في واشنطن. ولم يبلغ حتى غيتس أو هادلي بإرسالها.

فيما بعد، أكد هادلي، الذي كان على ثقة في البداية بأنه سيعلم بها، أكد مع بوش إرسالها. وحين سألت الرئيس عنها في عام 2008، شرح السبب الذي جعله يرسلها بواسطة كين. «أردت أن يعرف ديف أنني أريد الفوز. وأن كل ما يحتاج إليه سيحصل عليه، في حدود المستطاع طبعاً. لا أريد أن يفكر القائد الذي عينته أنه يتعامل مع رئيس مشغول بآخر استطلاعات الرأي أو السياسة إلى حد القلق من إصدار قرار أو توصية تجعل [القائد] يشعر بالانزعاج»[10].

بعد أن سمع بترايوس رسالة الرئيس من كين، قال: «أتمنى لو يخبر القيادة المركزية والبنتاغون بها». فالمسؤولون فيهما هم الذين يجب عليه التعامل معهم كل يوم، وهؤلاء يتبنون منظوراً مختلفاً اختلافاً كبيراً. ومثلما هي الحال دائماً، فإن جريرة مخاوف واشنطن المقلقة يتحملها القائد الميداني.

قال كين: «لقد حاولت». أمل أن يجبر الرئيس وتشيني غيتس، ورؤساء الأركان، والقيادة المركزية، على اتباع الإستراتيجية ذاتها.

قال بترايوس إن شهادته أمام الكونغرس كانت محنة لم يتوقعها. فالجلوس في المقعد في وضعية الاستعداد طوال اليوم الأول مدة عشر ساعات ونصف الساعة عذبه وأوجعه. فضلاً على عبثية الاستراحات القليلة والطعام الذي لا يسد الرمق. وأضاف إنه كان مستعداً لسماع الخلافات على السياسة، لكنه فوجئ بالهجوم عليه شخصياً. فإعلان «الجنرال الذي خاننا» كان صعباً عليه بوجه خاص. «الناس معتادون على هذا الموضوع، فالجميع يتحدثون عنه. لكن عندما تجد اسمك وصورتك، تشعر حتماً بأنه هجوم على شخصك». وأضاف إنه لا يعرف هل يتمكن من تجاوز هذه المحنة.

قال كين إنه بوصفه نائباً لرئيس هيئة أركان الجيش (سابقاً)، اعتاد تقديم ست شهادات في السنة. لكن لم يتعرض لهجوم شخصي قط. «عليك أن تفهم غرابة هذه المسألة، وشذوذ هذا النوع من السلوك».

رأى كين أن صديقه مدمر عاطفياً ومنهار وجدانياً. ففي أثناء الشهادة المتلفزة، بدا مجروحاً قليلاً، لكن ذلك جعل العرض أكثر فاعلية وتأثيراً، ولم تبد دفاعية أو انتصارية.

مع أن بترايوس قد وافق على العودة مرة أخرى بعد ستة أشهر لتقديم شهادة علنية توجز آخر التطورات، إلا أن كين أبلغه: «إن استطعت تدبير أمر إلغائها فافعل ذلك». وهذا أمر صعب؛ لأن ظهوره أمام الكونغرس أبعد عن كاهل إدارة بوش كثيراً من الضغط. وأضاف: «لكن إن عدت مرة أخرى، فسيكون لديك المزيد من قصة النجاح لروايتها، نظراً إلى ما نعرف أنه سيحدث إلا إذا تبين خطأ افتراضاتنا، وأعتقد أن هذا المستوى من القلق فيما يتعلق بمسألة العراق برمتها سوف ينحسر ويتراجع. وأتوقع أن يحدث ذلك بالتأكيد. ومع أن الاستجابة لن تصل إلى حد التعبير عن المحبة، لكنها ستختلف عن سابقتها كما أعتقد».

«القضية الحقيقية بالنسبة إليك أن حياتك العسكرية برمتها، وكل ما حدث قبل الشهادة، وكل ما سيحدث بعدها، سيتحدد بمسألة واحدة: العراق. لقد انضممت إلى مجموعة مختارة من الجنرالات، ولم نواجه وضعاً مشابهاً منذ فيتنام. ونظراً إلى حقيقة أنك تحقق النجاح وستستمر في تحقيقه، أعتقد أنك أقرب إلى جنرالات الحرب العالمية الثانية منك إلى جنرالات حرب فيتنام». والنموذج الواضح هو دوايت أيزنهاور. «ما ستفعله في الأشهر الباقية سوف يحدد مصيرك طوال ما بقي من حياتك المهنية العسكرية وحياتك العادية».

«القضية هنا هي التوثق من عدم تبديد المكاسب التي حققناها. فمن المحبط جداً أن تضطر إلى الوقوف في وجه سلسلة القيادة التي تتبعها كل يوم، وتحاربها، بدلاً من تلقي الدعم منها».

قال بترايوس إن الجيش يفكر في تعيينه في مناصب جديدة بعد العراق، ومن بينها: قائد حلف شمال الأطلسي، أو قائد القيادة المركزية (المنصب الذي يشغله الأدميرال فالون حالياً)، أو رئيس قيادة التدريب وعقيدة التشغيل، التي تشرف على تدريب الجيش، وتطوير العقيدة العملياتية، وشراء منظومات الأسلحة الجديدة.

قال كين بنبرة شبه موبخة: «كفاك يا ديف. قيادة التدريب والتشغيل؟! صحيح أنها قيادة مهمة، لا أجادل في ذلك. لكن عليك أن تفهم من أنت الآن وما حدث لك». وكان هنا يعني ما قاله للتو عن بترايوس وكونه أقرب إلى جنرالات الحرب العالمية الثانية. «لم نشهد جنرالاً مثلك منذ مدة طويلة. ربما لا تدرك هذه الحقيقة، لكنك تمارس تأثيراً أعظم من أي قائد عسكري في البلد الآن. ونفوذك أقوى من رؤساء الأركان، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، وقائد القيادة المركزية بالتأكيد». فقدرة بترايوس على تكوين الرأي العام لا تضاهى. «ما تتمتع به يتجاوز ما يملكه أي قائد آخر»، بل حتى الرئيس نفسه. «لقد بلغت تلك المكانة بسبب التحول الذي حققته في هذه الحرب. فالجميع يعلم استحالة إنجاز ذلك لولا جهودك. ونظراً إلى هذه الحقيقة، هذه هي المنصة التي تقف عليها، شئت أم أبيت».

قال بترايوس: «لم أفكر في الأمر على هذا النحو».

قال كين ضاحكاً: «إذاً، لا تفكر في قيادة التدريب والتشغيل. لا يوجد قائد أريب يسمح بتعيينك في هذا المنصب. لن يحدث ذلك أبداً». ثم تحدث بوصفه رئيسه السابق في الجيش: «لقد استثمرنا فيك. إذا أردت البقاء في المؤسسة العسكرية، فسوف يسمح لك بالتأكيد. ويمكنك أن تقدم الحجة المقنعة على رغبتك بتركها، حيث لا يوجد منصب يقارن بمنصبك الحالي».

الاقتراح الضمني هو الاشتغال بالسياسة.

قال كين: «هناك منصبان اثنان عليك التفكير فيهما: أحدهما القيادة المركزية. فالمكانة التي وصلت إليها سوف تغل علينا مكاسب على شكل قوة ونفوذ في المنطقة؛ وهذا ما لا يستطيعه أي قائد آخر. فهذه المنطقة هي مركز الجاذبية للأمن الدولي والنزاع في العالم».

في القرن العشرين كانت أوروبا هي المركز، حيث جرت حربان عالميتان فيها. لكن المركز الآن هو الشرق الأوسط. «سوف نخوض حروباً أخرى هنا»، كما قال كين.

الاحتمال الثاني هو منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة، لكن ذلك يعتمد على مدة الخدمة التي يرغب بترايوس بقضائها. فالرئيس الجديد، الأدميرال مولين، قد بدأ لتوه مدة خدمته التي تستمر سنتين، ولذلك لن يشغر المنصب قبل عام 2009 على أقل تقدير.

في مقر القيادة المركزية في تامبا، شعر فالون بأن نفوذه يتضاءل. واستشعر أن بترايوس يحظى بقناة اتصال مباشرة بالبيت الأبيض، تتجاوزه هو وسلسلة القيادة. ومع ذلك، شهدت علاقته ببترايوس تحسناً كبيراً على مر السنة. وبرأي فالون، توصل الاثنان إلى نتيجة مفادها أن بالمستطاع تخفيض عدد القوات إلى أربعة ألوية أو خمسة في مدة عامين أو ثلاثة، برغم أن أياً منهما لم يذكر ذلك علناً.

لكن فالون بقي متشبثاً بصراحته المعهودة. وقال لغيتس: «إن اعتقدت أن ذلك يضعف فاعلية قدرتنا على أداء المهمة هنا، فأبلغني وسوف أستقيل».

فقال غيتس، بنبرة لا تعبر عن موافقة حماسية: «تابع العمل».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أربعة من المصادر المطلعة

1- انظر:

David Kilcullen, «Anatomy of a Tribal Revolt, « *Small Wars Journal*, August 29, 2007, www.smallwarsjournal.com

2- انظر:

General Petraeus or General Betray Us?» MoveOn.org advertisement, *The New*» *York Times*, September 10, 2007, P. A25.

انظر أيضاً:

http://pol.moveon.org/petraeus.html.

3- CNN Newsroom, September 10, 2007,http://transcripts.cnn.com/ TRANSCRIPTS.

4- Joint Hearing of the House Armed Services and Foreign Affairs Committees;» Subject: The Status of War and Political Developments in Iraq, «Federal News Service, September 10, 2007, www.fnsg.com.

Peter Baker and Jonathan Weisman, «Petraeus Backs Initial Pullout; General -5
Praises Progress, Warns Against 'Rushing to Failures,'» *The Washington Post*, September 11, 2007, P. A1.

Harry Reid, The Good Fight, 2008, P. 10. -6

Presidential Documents, September 13, 2007, pp. 1204-1208 (Vol. 43, No. 37), -7
www.gpoaccess.gov/wcomp/v43no37.html.

Defense Department News Briefing, September 14, 2007, DOD transcripts, -8
www.defenselink.mill.

Julian Barnes, «Gates Seeks Bigger Troop Cut; The Defense Chief Looks to -9
Reduce the Number in Iraq by Nearly Half Before 2009-a Deeper Trim than Bush Plans,» *Los Angeles Times*, September 15, 2007, P. A1.

10- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.

-39-

بعد عودة بترايوس إلى بغداد، انهمك على نحو متزايد بأصغر تفاصيل عمليات الحكومة العراقية. احتلت قمة الأولويات مساعدة الحكومة الجديدة على تحقيق تقدم سياسي، لكنه وجد أن ذلك يحدث في نوبات غير منتظمة، خطوة بطيئة مؤلمة في كل مرة. كان ذلك كله يعني عدم وجود قضية تافهة، ولا مشكلة عادية. فقد لعب دور الحكم في النزاعات المحلية وجادل في قضايا من اختصاص المجلس البلدي لا الحكومة الوطنية.

في أحد الاجتماعات مع كبار الوزراء العراقيين، لاحظ بترايوس أن عدداً ضخماً من سيارات الحكومة العراقية قبل غزو عام 3003 مازالت تحمل اللوحات والعلامات الحكومية العراقية، على الرغم من عدم معرفة هوية سائقيها. قال: «غالبية عمليات الاختطاف تجري بسيارات حكومية». إضافة إلى ذلك، لا يطيع كثير من هؤلاء السائقين الأوامر عند مختلف نقاط التفتيش المنتشرة حول بغداد. فكيف تنوي الحكومة السيطرة على المركبات التابعة لها؟

اقترح وزير الداخلية العراقي وضع علامات جديدة بحيث «لا نقبل إلا الإذن الذي يوقع عليه الوزير المعني شخصياً بأن السيارة قانونية».

تجهم وجه بترايوس. فإلى وقت قريب، كان على وزير الدفاع توقيع العقود كلها شخصياً، وسوف يمضي ساعات في توقيع أكداس هائلة من الأوراق.

قال وزير الدفاع إنه عيّن نائب قائد القوات البرية على رأس لجنة للإشراف على «تمييز السيارات بالطريقة المناسبة والسيطرة عليها». وهكذا، ألقي عبء مشكلة أمنية كبرى على عاتق لجنة.

«الإجابة عن كل شيء هي تعيين لجنة، ومن ثم عليك مساعدتها»، مثلما اشتكى بترايوس سراً، مع أنه أكد أن الأمور تنجز مع الزمن، وإن بنحو بطيء.

في أثناء الاجتماع ذاته مع كبار المسؤولين، لم يتمكن بترايوس من الاتفاق مع الوزراء العراقيين حول أرقام الهواتف المخصصة للمحطات الأمنية المشتركة في مختلف أرجاء بغداد، التي سيوجد فيها الجنود الأمريكيون، والجنود العراقيون، والشرطة العراقية –وهي جوهر إستراتيجية بترايوس لتأمين السكان. ومثلما تبين، لم تكن بعض المحطات مجهزة حتى بخطوط أرضية. وبعد كثير من النقاش، اتفقوا على تخصيص بعض أرقام الهواتف الخلوية للمحطات.

في مناسبة أخرى، وبخ بترايوس لواء عراقياً بسبب عدم وجود ضباط صغار وضباط صف في الجيش العراقي. فقد قال غاضباً: «نعرف كلنا المشكلة: ليس لديكم ضباط صف أو ضباط من الرتب الصغيرة يلزمون جنودكم بالمعايير. الجميع يعلم ذلك. ونحن نتكلم عن المشكلة منذ شهور». في الجيش الأمريكي، يحتل ضباط الصف وصغار الضباط قلب الوحدات الفاعلة وروحها. «إذاً، أين خطتك لتجنيد ضباط الصف؟ يجب أن نناقش هنا كيف نحل المشكلة، لا أن تأتي إلى هنا وتضيّع وقتنا بالحديث عن مشكلة نعرفها كلنا!».

فيما بعد، طلب بترايوس من مستشار أمريكي يعمل مع العراقيين أن يبلغ اللواء العراقي دعوته إلى الغداء. «قل له إنني أحترمه وأقدره حقاً، وكنت أحاول المساعدة وحسب. قل له إنني لم أهاجمه شخصياً».

في أحد اجتماعات اللجنة الوزارية المعنية بالأمن الوطني، الذي ضم المالكي وغيره من كبار المسؤولين في الحكومة، كانت المشكلة موضوع النقاش أن وزير المواصلات المؤقت لم يدفع فاتورة ستة أشهر لمجموعة «غلوبال ستراتيجيز»، وهي شركة مقاولات بريطانية توفر الأمن والحماية لمطار بغداد الدولي. وكان العقد الذي بلغت قيمته خمس مئة مليون دولار في السنة مهدداً بخطر الإلغاء.

قال برهم صالح نائب رئيس الوزراء: «المشكلة أن البلدان الأخرى لن ترسل طائراتها إلى هنا دون ضمانات أمنية».

قال بترايوس: «هذه مشكلة ضخمة. ولا تقتصر على بغداد فقط، بل يجب العمل أيضاً في البصرة ومرفأ أم قصر، وهو مهم؛ لأنه المرفأ البحري الوحيد في العراق. يجب وجود شركة موثوقة من خطوط الطيران الدولية تكلف بمسؤولية الأمن»، وإلا ستتوقف الرحلات إلى بغداد، مما يزيد عزلة البلد عزلةً. ويمكن لمكان العراق في الاقتصاد العالمي الجديد أن يواجه نكسة خطرة، وربما يتعذر تجاوزها.

بعد ذلك، تحول كبار الوزراء العراقيين، مع رئيس الوزراء، والقائد الأمريكي العام، إلى موضوع الحديد الخردة. استشهد بترايوس بدراسة أظهرت أن في العراق ما قيمته 16 مليار دولار من الحديد الخردة منتشر في مختلف أنحاء البلد، ويشمل حطام السفن التي تسد المرفأ في أم قصر. وقال إن وزير الصناعة والمعادن يحتاج إلى 75 مليون دولار ليبدأ مشروع تنظيف البلد من الحديد الخردة ثم إعادة استعماله. لكنه لاحظ أن المبلغ غير متوافر.

أكد صالح أن المبلغ غير وارد في الميزانية. وقال إنهم يأملون خصصة مشروع الحديد الخردة. ووعد بمتابعة العمل على الموضوع.

في الساعة الواحدة بعد ظهر الثاني من تشرين الأول، ذهب مستشار الأمن القومي العراقي موفق الربيعي لمقابلة رايس في وزارة الخارجية. ومع أنه عرف تماماً أن بترايوس وكروكر يمسكان بزمام معظم الأمور في بلاده، إلا أن من الضروري، كما اعتقد، التفاوض على اتفاق جديد على وضع القوات يسمح للقوات الأمريكية بالبقاء في العراق. قال لها الربيعي: «ليس من الضروري الإعلان عن هذا». إذ أراد رئيس الوزراء المالكي «إلغاء المنغصات المزعجة التي تعد انتهاكات واضحة للسيادة العراقية».

قالت رايس وهي تلقي المسؤولية على المنسق الجديد لشؤون العراق في البيت الأبيض، خريج كلية ويست بوينت عام 1975 الذي عينه بوش «قيصر حرب» الإدارة في العراق وأفغانستان قبل خمسة أشهر: «هذه مشكلة دوغ لوت. سيكون رئيس فريق الولايات المتحدة في تطوير هذه العلاقة».

قال الربيعي: «حسناً، يجب أن تمدي لنا يد العون».

قالت رايس إن من الضروري تأليف مجموعة عمل، لكن في اجتماع حضرته أبلغ بوش الرئيس العراقي جلال الطالباني أنهم «لا يريدون عقد مثل هذه الاتفاق في خضم الموسم السياسي الانتخابي في الولايات المتحدة. وعندئذ، لن يكون من الصعب الموافقة عليه في الولايات المتحدة فقط، بل يستحيل أن يحظى بالموافقة في العراق أيضاً في ظل الظروف الراهنة».

قال الربيعي: «نحن بحاجة إلى حكومة مركزية أكثر قوة. وهذه الحكومة ليست قوية، ولن تتمتع بالقوة إلا إذا أصبحت الولايات المتحدة أكثر جرأة وجسارة في مواجهة أولئك الذين يعرقلون عملها»، وكان يعني السنة وحلفاءهم في الخارج، مثل السعودية.

أجابت رايس: «حسناً. من الذين يجب أن نضغط عليهم؟ ومن أجل أي غرض؟».

قال: «يجب أن تساعدونا عبر الضغط على زعماء الكتل السياسية» مثل طارق الهاشمي (السني)، نائب الرئيس العراقي «بحيث يعرفون أنهم لا يستطيعون بكل بساطة اللجوء إلى العنف بدلاً من المشاركة في العملية السياسية. تولوا مسؤولية التعامل مع الحزب السني، وسنتحمل مسؤولية التعامل مع مقتدى الصدر، والشيعة».

سألت رايس عن الحدود الإدارية للمحافظات، وتلك قضية متنازع عليها.

قال الربيعي: «هناك شلل عام. ركود شامل».

«لماذا؟».

قال الربيعي: «لأن هذه الحدود الإدارية كلها رسمت بالدم. ولن يوافق أحد طوعاً على تغييرها». وأضاف: «سيتفجر قتال حولها. وببساطة شديدة، لا يوجد أحد يملك ما يكفي من نفوذ في المنطقة سواكم أنتم، الولايات المتحدة. نحن لا نملك مثل هذا النفوذ. أنتم وحدكم. ويمكنكم بالحوار الحقيقي فعل شيء مع سوريا وإيران. أما نحن فلا نملك القدرة».

في الساعة الثالثة من عصر اليوم ذاته، التقى الجنرال دوغ لوت بالربيعي في غرفة اجتماعات صغيرة مجاورة لغرفة العمليات (التي تصل إليها آخر المعلومات العسكرية والسياسية) في البيت الأبيض. أبلغه الربيعي أن العراقيين يواجهون مشكلات حقيقية في شراء الأسلحة الأمريكية. «نحن نفضل أن ترتقي غالبية أسلحتنا في الجيش –على الأقل– إلى مستوى معايير الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي».

قال لوت: «بصراحة تامة، ما زلنا نتبع نظام الحرب الباردة. ونائب الوزير إنغلند هو المسؤول عن إصلاح نظام مبيعات الأسلحة الخارجية لتلبية الحاجات في أفغانستان والعراق على وجه الخصوص»، وثمة فريق يعمل على الموضوع.

قال الربيعي: «حسناً، يجب الإسراع في العملية»، فالنظام بطيء جداً.

وافقه لوت الرأي، لكن النظام تطلب إصلاحاً منذ سنين.

قال: «إن واجهت أي مشكلة فلا تتردد في الاتصال بي مباشرة. هذه رزمة من بطاقاتي»، وأعطاه عدداً من بطاقات البيت الأبيض تحمل اسمه وأرقام هواتفه.

وفيما يتعلق بقضية ميليشيا الصدر الحساسة، قال الربيعي إن من الأفضل للقوات الأمنية العراقية مطاردتها ومواجهتها. «حتى لو اتبعنا أسلوباً أكثر قذارة، حتى لو ارتكبنا أخطاء، حتى لو أصبنا بخسائر جسيمة، دعونا نقوم بالمهمة. نحن على استعداد لإراقة مزيد من الدماء».

قال لوت: «حسناً، حسبت أن القوات الأمنية العراقية أنجزت معظم المهمة على أي حال».

قال الربيعي: «في الحقيقة، لم تفعل شيئاً من هذا القبيل. القوات الأمريكية تبعد القوات الأمنية العراقية. وتبدو العملية كلها أمريكية، لا عملية عراقية مستقلة. دعونا نحاول ونرتكب الأخطاء مادمتم أنتم لا تزالون حولنا».

في الرابع من تشرين الأول ذهب الربيعي لمقابلة نائب وزير الدفاع غوردون إنغلند، ومعاونه لشؤون السياسة إيريك إدلمان.

أبلغهما الربيعي أن المالكي وحكومته بحاجة إلى كثير من العون والمساعدة لإظهار مزيد من التقدم بحلول نيسان 2008، الموعد المقرر لتقديم بترايوس وكروكر تقريرهما الثاني أمام الكونغرس.

قال إنغلند: «إذا لم يجد الكونغرس أنكم تحققون تقدماً، فلن نحصل على المال، ولن نتمكن من مساعدتكم، وسينتهي كل شيء».

قال الربيعي: «أحمل رسالة من رئيس الوزراء إلى الوزير [غيتس] تتعلق بالمتطوعين العراقيين في القوات الأمنية، الذين يدعوهم بعض المعلقين بالمليشيات السنية. في المناطق المختلطة، يجب أن تقوم الحكومة بدور مأمور صرف الرواتب، نظراً إلى ضرورة سيطرتها على الوضع فيها». لكن في الوقت الراهن، فإن الولايات المتحدة هي التي تدفع لها. «يطالب التحالف بحلول سريعة، لكن يجب أن تقود العملية حكومة العراق. يجب أن ترسخ سياستها وعملياتها. وهذا المجال يمثل نقاط احتكاك هائلة بيننا». لم يعجب الحكومة التي يقودها الشيعة في العراق الترتيبات العديدة التي جرت حديثاً مع السنة. «يبدو الأمر كأنه فعل يائس من التحالف الذي يسعى إلى العثور على أي سبيل متاح لإيجاد قوى تمكنه من مغادرة العراق». ولن تنجح «أساليب الحلول السريعة» هذه إلا في المناطق السنية أو الشيعية فقط. «حتى في مدينة الصدر، تبلغ نسبة السكان السنة 10%».

قال إدلمان: «من المؤكد أن بترايوس وأوديرنو على علم بهذا كله».

أجاب الربيعي: «أجل. لكن يجب إدراك حقيقة أن على المجندين أن يمثلوا قيمة مضافة إلى القوات الأمنية العراقية، لا عنصراً يضعفها... فأول مبدأ من مبادئ وحدة القيادة وجود قائد واحد مسؤول».

وانتهز الربيعي الفرصة ليشتكي مرة أخرى من البطء في الحصول على الأسلحة الأمريكية، وقال محذراً: «هذا سيؤخر تخفيض عدد قواتكم».

سمع جاك كين عبر أخبار متسربة من البنتاغون أن الأدميرال مايكل مولين، رئيس هيئة الأركان المشتركة المعين حديثاً، قد أبلغ زملاءه أن واحدة من أولى خططه «إعادة كين إلى الصندوق» بمعنى تحجيم دوره وتأثيره. اتصل كين ورتب موعداً مع مولين.

قال مولين: «هذه جلسة صعبة بالنسبة إلي، لكنني لا أريدك أن تذهب إلى العراق بعد الآن لتساعد بترايوس».

سأل كين: «ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟!».

قال مولين: «لقد تجاوزت مكتب رئيس هيئة الأركان المشتركة وأضعفته». لم يكن واضحاً للشعب الأمريكي من المسؤول فعلاً عن المؤسسة العسكرية.

قال كين: «كفاك. الشعب الأمريكي لا يعرف من أكون. هذه من قصص واشنطن. لا يمكن أن تكون جاداً».

قال مولين: «بل أنا جاد».

حاول كين أن يخبره كيف ذهب في أواخر عام 2006 إلى رمسفيلد وبيس واشتكى أمامهما من إستراتيجية حرب العراق. وأدى ذلك إلى مقابلة الرئيس في الحادي عشر من كانون الأول؛ لأن الجنرال بيس أوصى به.

قال كين: «ربما تستاء من حقيقة أنني ساندت بترايوس، وأيدت تنفيذ السياسة، وحاولت حمايته من بعض الأمور التي تجري في هذه المدينة وفي هذا المبنى. أنا لا أعتذر عما قمت به».

قال مولين إنه أصبح مطلعاً تماماً على الضغوط المتراكمة على الجيش ومشاة البحرية، وإن أسر الضباط والجنود هي التي تتحمل عبء هذه الضغوط، في حين تخسر المؤسسة العسكرية ضباطها المؤهلين والأكفاء.

قال كين: «مايك، هذا كله صحيح. لكنه يصح أيضاً على كل حرب نخوضها مهما كانت عواقبها». فالحروب تفكك الجيوش، ويجب إعادة اللحمة إليها؛ هذا هو ثمن الحرب، لكنها تستحق هذه الثمن. «لم تتحدث مرة واحدة عن الفوز يا مايك، لم تذكر الفوز ولا مرة... فهل تريد الفوز في العراق؟».

كان سؤالاً مهيناً يطرح على زميل السلاح.

قال مولين: «بالطبع أريد الفوز».

رد كين: «هذا ما أفترضه. لكنك حين تضغط بهذا القدر على بترايوس لتخفيض عدد القوات فأنت تخاطر مخاطرة كبرى، مخاطرة التعرض للخسارة لا للفوز».

قال مولين: «هنا سوف نختلف».

سأل كين: «هل تريد مني حقاً التوقف عن مساعدة بترايوس. ديف بترايوس، بغض النظر عمن يريد التحدث إليه، وبغض النظر عن حجمه، أو شكله، أو آرائه، لنقدر حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه —فهو يعمل في أصعب وظيفة عسكرية- فلماذا لا تدعه يتلقى العون؟».

قال مولين: «لا، لا أريد المخاطرة. لا أريدك أن تساعده».

انتهى الاجتماع.

فيما بعد، حين لم يتمكن كين من الحصول على إذن بالذهاب إلى العراق، اتصل ببترايوس، الذي أبلغه أنه التقى مولين في العراق قبل تسلم منصب رئيس هيئة الأركان، وقال له (مولين) إنه لا يريد أن يأتي كين مرة أخرى. قال بترايوس: «فوجئت فعلاً».

أبلغ بترايوس مولين أنه يتفهم رفض رئيس هيئة الأركان تدخل كين. لكن نشاط كين لم يكن تدخلاً. فقد كان يقدم المشورة العسكرية للرئيس، ونائب الرئيس، وبترايوس نفسه. «ربما يمكنك التفكير في الاستعانة به والاعتماد على نصائحه بمرور الوقت».

قال مولين: «لا». كان جديداً في منصبه، ويحاول إعادة ترسيخ سلطة مكتب رئيس هيئة الأركان.

اتصل كين بجون هانا في مكتب تشيني ليبلغه ما حدث. وبعد وقت قصير، تلقى كين اتصالاً من جنرال الجيش سكيب شارب، مدير هيئة الأركان.

قال شارب: «لدينا طلب غير عادي. تلقينا طلباً من البيت الأبيض بتوفير ضمانات تتيح للجنرال كين زيارة العراق ومساعدة بترايوس مثلما كان يفعل في السابق». كان شارب على ما يبدو يقوم ببعض الأعمال قبل عرض الطلب على الجنرال مولين. «هذا غريب فعلاً. هل تعرف السبب وراء هذا الطلب».

قال كين: «أجل، بالطبع، فقد منعت من الذهاب إلى هناك».

«من منعك؟».

«رئيس هيئة الأركان». ساد صمت طويل حين أدرك شارب أن المعني هو رئيسه. «سكيب، هل أنت على الخط؟».

«أحاول معرفة ما الذي يحدث هنا».

تحدث كين فيما بعد مع الجنرال تشياريللي، المساعد العسكري لغيتس.

قال تشياريللي: «تلقى الوزير بعض الملحوظات». كان هذا ما يقوله الوزير وموظفو مكتبه لكل من يسأل. «يمكن للجنرال كين، مثلما كان يفعل في الماضي، وسيفعل في المستقبل، الذهاب إلى العراق لمساعدة الجنرال بترايوس كلما رغب الاثنان بذلك. ليست لدينا أي مشكلة فيما يتعلق بهذه المسألة».

طلب نائب الرئيس تشيني من مولين أن يبعد المطرقة عن كين. لم يوافق، ولذلك أرسل مذكرة وتحدث إلى غيتس عن مدى أهمية مساعدة كين. وطلب الرئيس أيضاً السماح للجنرال كين بالعودة إلى العراق.

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع أربعة من المصادر المطلعة.

-40-

قال الرئيس العراقي جلال الطالباني (أحد أبرز الزعماء الكرد) ذات مرة: «العراق مثل باقة من الأزهار –مختلفة لكن مجمعة معاً». أما ديفيد ساترفيلد فقد شبه العراق بخزان ماء حاشد «بالأسماك النهمة التي تتبادل الافتراس».

ظلت التقارير الاستخبارية والدبلوماسية تظهر الغلو الطائفي لكبار معاوني المالكي وروابطهم الوثيقة بأفراد أو حركات تعارض الوجود الأمريكي في العراق معارضة شديدة، مثل الإيرانيين والصدريين.

ومن أبرز هؤلاء المساعدين باسمة الجيدري، المرأة القوية التي تحمل ثلاث شهادات جامعية. وصف أحد كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكي باسمة الجيدري بأنها «معادية الغربَ، والأمريكان، والاحتلال». جمعتها بالمالكي علاقة متينة مبنية على ثقة عميقة، وذلك وفقاً للمسؤولين في الاستخبارات والجيش. تمتعت بنفوذ هائل، واستغلت موقعها في مكتب المالكي لإصدار الأوامر إلى كبار ضباط الجيش العراقي وغيرهم من المسؤولين الحكوميين بوقف العمليات ضد أعضاء المليشيا الشيعية.

تأمر فتطاع. تقول: «لا تعتقل هذا الشخص»، فيمتثل اللواء العراقي. أو «أوقفوا هذه العملية» فيذعن. في السنة السابقة، لعبت دوراً أداتياً فاعلاً في عمليات «تطهير» بعض الأحياء في بغداد من السكان السنة التي انتشرت على نطاق واسع. وأمضت السفارة الأمريكية، ووكالات الاستخبارات الأمريكية، وقيادة بترايوس ساعات تنأى عن الحصر في محاولة فاشلة لمعرفة كيف يمكن إخراجها من مكتب المالكي. أخفقت الجهود والمساعي كلها، ومنها تعيينها سفيرة في الخارج.

استمرت الجيدري في التمتع بسلطة هائلة. وعلى الرغم من نزوعها الشديد إلى معاداة السنة، إلا أن المالكي اختارها عام 2007 لرئاسة لجنة المصالحة الوطنية التي يفترض بها جمع الشيعة والسنة معاً. ولم يصدق المحللون في أجهزة الاستخبارات ما حدث.

ذكر ساترفيلد في تقريره إلى رايس أن المالكي يفقد باطراد صلته بالواقع الحقيقي. فقد انقسم جيش المهدي (التابع للصدر) وتشظى، وهرب أفراده خشية الاعتقال، فنسب المالكي الفضل إلى قيادته النابغة. وعزا إلى جهوده النابهة صحوة الأنبار وتجنيد المواطنين المحليين من السنة الذين أصبحوا يقاتلون القاعدة ويساعدون في تخفيض مستوى العنف في المناطق الرئيسة. روايات المالكي المضللة تشمل: العراق عاد للوقوف على قدميه؛ كل شيء على خير ما يرام؛ لقد تجاوزنا المنعطف.

كلما حاول كروكر، أو بترايوس، أو ساترفيلد، أو غيرهم من المسؤولين الأمريكيين حث المالكي على القيام بشيء، يستحضر تأييد بوش. «الرئيس يدعمني فلماذا أستمع إليك أنت؟!».

في واشنطن، تجادل الرئيس وكبار مساعديه حول ما يجب عمله. شعر بوش أنه أقام علاقة شخصية متينة بالمالكي، وارتأى أنه لو احتد في الحديث مع رئيس الوزراء، وصارحه وبالغ في الضغط عليه، لأجبره على التراجع والانسحاب. إذ يمكن لتدمير ثقة المالكي بنفسه وتقديره ذاته أن يحدث مفعولاً عكسياً.

عاش المالكي حياة متخمة بالضغوط والتوترات إلى حد لا يصدق على مدى السنوات الثماني عشرة الماضية. واستنتج بوش أن المبالغة في الضغط عليه ستؤدي بهم إلى حكومة جديدة وزعيم جديد. ومن يكون هذا؟ لا أحد يعلم. وكم تحتاج العملية من وقت؟ ليس لدى أحد أي فكرة. قال المحللون في الاستخبارات إنه لا يلوح أحد في الأفق يحل محل المالكي. وسقوطه يؤدي إلى «فوضى شاملة». استبداله «قفزة في المجهول»، كما قال الرئيس. لا، شكراً. يمكن للآخرين الضغط على المالكي والتكلم معه بنبرة صريحة وجارحة وحادة، لكن ليس هو. سوف يتشبث برئيس الوزراء الحالي ويستمر في دعمه وطمأنته سراً وجهراً.

* * *

في شتاء ذلك العام، تركزت مطالعة بترايوس في الأمسيات على الحرب الأهلية مجدداً. وكان الكتاب هذه المرة «نيسان 1865: الشهر الذي أنقذ أمريكا» لجاي وينيك.

قرأ بترايوس عن بطله، الجنرال يوليسيس غرانت، وعن جهوده لإجبار الجنرال روبرت لي على الانسحاب من ريتشموند. أعلن غرانت «يجب أن نضغط عليهم في كل مكان»، وهي إستراتيجية تبناها بترايوس في العراق. في إحدى المراحل، حاول الجنرال لي يائساً الوصول إلى قطار يفترض أن يحمل المؤن إلى جنوده المتضورين جوعاً. اندفع لي إلى الأمام، يسابق الريح على صهوة جواده الشهير «ترافيلر»، وفتح أبواب العربات. لكنه لم يجد سوى الذخيرة.

توثق الجنرال لي، كما قرأ بترايوس، من عدم ارتخاء كتفيه أمام رجاله. إذ لم يرد أن يشعروا بإحباطه وخيبة أمله. استمد بترايوس السلوان من معاناة الجنرالات قبله، وتبنى مبدأ القيادة حتى في خضم الشك والخيبة وعرف أهميته. وقرر ألا يلحظ جنوده أي ارتخاء في كتفيه.

في يوم الثلاثاء الثامن عشر من كانون الأول، قبل أسبوع من عيد الميلاد، ذهبت رايس إلى بغداد حيث زارت فريق إعادة إعمار المحافظات في كركوك، ثم انتقلت إلى بغداد. في تلك الأمسية، عقدت لقاء روتينياً دام خمساً وعشرين دقيقة مع المالكي، وبترايوس، وكروكر. وفي الساعة 7:30 تقريباً طلبت من الآخرين مغادرة القاعة لكي تتمكن من الحديث على انفراد مع رئيس الوزراء.

قالت له بصراحة وحدة: «أنت لا تحقق أي نجاح»، وحاولت أن تعدد المشكلات الإدارية والسياسية التي تواجهها حكومته. فقد تعذر إجراء المفاوضات حول قرارات جديدة لمجلس الأمن وغير ذلك من القضايا بسبب غياب الأطراف العراقية الأخرى باستثناء المالكي وموظفيه. ولذلك، يجب أن تشمل المفاوضات في المستقبل فريقاً تمثيلياً يضم السنة والكرد. «لا يمكنك النجاح وحدك» كما قالت.

«هناك أشخاص في مكتبك لا يهمهم خدمتك أو خدمة الشعب العراقي».

سأل المالكي: «من هم؟».

«رئيس الوزراء، لن أعدد أسماءهم، لكنني أستطيع إبلاغك أن خدمة الأشخاص المحيطين بك ليست جيدة».

قال المالكي: «أنا أنتظر الفرصة منذ مدة طويلة للحديث عن هذا الموضوع. دعيني أصف صعوبة وظيفة رئيس وزراء العراق». وأضاف إنه مطوق بالأعداء. فالمجلس الرئاسي، المكون من الطالباني والهاشمي ومهدي، يتآمر عليه ويعرقل التشريعات دوماً. وذكر حالات محددة ومكائد مزعومة –خلطة من الشك والريبة والوصف الدقيق للصراع على السلطة في خضم الكراهية الطائفية. دام اللقاء ساعة وربع الساعة.

فيما بعد، تأخرت رايس في الوصول إلى المحطة اللاحقة من رحلتها؛ بسبب الاشتباه في وجود عبوة ناسفة محلية الصنع يجب تفكيكها. وأبلغت مستشاريها أنها ستعود إلى بغداد بأسرع وقت ممكن؛ لوضع إيقاع للحوار المباشر مع المالكي والزعماء الآخرين –السنة والشيعة والكرد.

في وقت لاحق من ذلك الشهر، اقتربت مخاوف المالكي عللى نحو خطر من التحقق. فقد كوّن الكرد، إلى جانب الزعيم السني طارق الهاشمي، تحالفاً وضع إعلاناً (مانيفستو) أكد فيه أن الحكومة العراقية لا تؤدي واجبها. وأمل في إجراء تصويت بحجب الثقة عن حكومة المالكي لإسقاطها. غضب الملكي، وحثه اثنان من كبار مستشاريه، صادق الركابي وسامي العسكري، على الجدل العلني. وكتبا دحضاً مباشراً ومستفزاً. لكن مستشار الأمن القومي موفق الربيعي، قال محذراً: «هذا سيخرج الموضوع إلى العلن، فتعم الفوضى والاضطراب. حاولوا التعامل مع المسألة سراً».

أخيراً، أرسل المالكي موفق الربيعي شمالاً لمقابلة الزعيم الكردي مسعود البرزاني، الذي وافق في نهاية المطاف على عدم التركيز على إعلان يمكن أن يسهم في انهيار الحكومة.

في الثاني عشر من كانون الثاني 2008، التقى الرئيس بيترايوس على انفراد في كامب أريفجان، القاعدة الأمريكية في الكويت. وأعاد توكيد الرسالة التي أرسلها بواسطة ديفيد كين –كل ما تحتاج إليه سوف تحصل عليه، إن أمكن. فإن تعذر ذلك فسنجد طريقة لجعله متيسراً.

سأل بوش: «حسناً، دعني أتحقق الآن: يقولون إنك تريد مقر القيادة العليا للقوى المتحالفة في أوروبا».

قال بترايوس: «أجل يا سيدي. أعرف كثيراً من الأشخاص في حلف النيتو بسبب الوظيفة التي أعمل بها الآن، وتسهم الدول الأعضاء بقواتها [في العراق]، وعملت في لبنان عدة مرات». عمل مساعداً عسكرياً للقائد الأمريكي في أوروبا. «كنت جنرالاً بنجمة واحدة وبنجمتين في الحلف». يشارك حلف النيتو في الحرب في أفغانستان، ولذلك يستطيع أن يسهم فيها. «تتحدث زوجتي الفرنسية والألمانية والإيطالية». ووالدها، الجنرال وليام نولتون، اختتم حياته المهنية ممثلاً للولايات المتحدة في الحلف.

قال بوش: «حسناً، لك ذلك».

في الخامس عشر من كانون الثاني 2008، ذهبت رايس إلى بغداد مرة أخرى والتقت بالزعماء الذين عدّهم المالكي أعداءه –الطالباني، والبرزاني، والهاشمي، وعبد المهدي. قدمت المشكلات بمصطلحات قانونية، مركزة على الجانب السياسي لا الطائفي، ودافعت عن المالكي أمامهم. قالت: «لا تقولوا لي إنه يعرقل سير الأمور. لديكم أصوات أكثر عدداً».

بالغ المالكي في تقدير ما أبداه أعداؤه –مؤقتاً– من ضبط للنفس. وأعلن في خطبة عامة في شباط 2008 أن «المصالحة الوطنية قد نجحت في العراق، وأصبح العراقيون مرة أخرى إخوة يتبادلون المحبة» [1].

في آذار، كثف بترايوس والمالكي خطط شن عمليات حربية مشتركة في البصرة، المدينة الجنوبية التي تبعد خمسة عشر ميلاً عن الحدود الإيرانية. كانت العمليات اختباراً لجدية المالكي في فرض سلطة الحكومة المركزية في معقل النفوذ الإيراني والتطرف الشيعي. وفي نهاية الشهر، أظهرت المعلومات الاستخبارية أن المالكي يريد أداء المهمة وحده، بل أشرف بنفسه ميدانياً على هجوم الجيش العراقي.

قال السفير كروكر: «اللعنة!». ولم يصدق بترايوس ما حدث. لم يكن المالكي على استعداد كاف، وكانت قواته سيئة الإعداد والتجهيز. ويمكن خسارة كل شيء بمقامرة متهورة واحدة. فكيف يمكنهما إيقافه وإصلاح ما أفسده؟ سرعان ما أرسل المالكي مذكرة رسمية يبلغهما أنه سيسير قدماً في العملية، فأصيب كثير من المسؤولين في الحكومة الأمريكية بالذعر.

ما عدا الرئيس. فقد كان المالكي، برأيه، يتخذ خطوة جسورة على الرغم من الأحكام العقلانية كلها. اعتقد بوش أنها قضية عادلة. «هذه لحظة حاسمة في تاريخ العراق الحر»، كما قال الرئيس في مؤتمر صحفي. وأرسل إلى المالكي يقول: أحسنت، تابع، وإلى الأمام حتى النصر [2].

* * *

بدأت قوات مقتدى الصدر في مدينة الصدر بقصف المنطقة الخضراء في آذار 2008. أغلق المسؤولون الأمريكيون المنطقة، واختبأ ألف منهم في أحد مباني صدام القوية، وناموا على أسرة قابلة للطي. أصاب أحد الصواريخ مدخل بيت السفير كروكر، وانفجرت قذيفة ثقيلة من عيار 240 مم –قطرها يزيد على تسع بوصات– على بعد مئة متر فحطمت النوافذ.

سرعان ما أرسل المالكي القوات العراقية إلى مدينة الصدر. وكان ينقض مزاعم العرب السنة أنه دمية إيرانية أو أداة بأيدي المليشيات الشيعية، ويتصدى لأقوى مليشيا شيعية، جيش المهدي، أهم مصدر قوة ونفع للإيرانيين على الأرض في العراق.

لم يكن ساترفيلد قادراً على تحمل خطابية بوش المتورمة إلا بشق الأنفس. كان مغالياً في خطابه، ومبالغاً في نبرته الانتصارية. شعر بوش بتجدد الثقة بسبب انخفاض مستوى العنف، بفضل عمل بترايوس وكروكر.

ومن مراقبة ساترفيلد للرئيس ومشاهدته عن قرب طوال عدة سنين، توصل إلى بعض النتائج. إذا اعتقد بوش بصحة شيء، آمن بأنه سينجح. فصوابيته تضمن نجاحه في نهاية المطاف. الديمقراطية والحرية فكرتان صائبتان، ولذلك يجب أن تفوزا وتسودا.

لاحظ ساترفيلد أن بوش لا يتحمل الشك ولا يتساهل مع الارتياب. وأقواله وأفعاله تذكر من حوله على الدوام بأنه المسؤول. المقرر الأوحد. ونتيجة لذلك، كثيراً ما كان يلقي دعابات لاذعة أو يهمس تعليقات هازلة إلى الزملاء وجدها ساترفيلد جارحة ومؤذية للمشاعر. في أحد الاجتماعات، أثارت رايس قضية الميزانية.

قال بوش: «ليس الآن الزمن المناسب ولا المكان المناسب للدفاع عن مصلحة وزارتك. قلت لك لا أريد سماع شيء عن هذا الموضوع».

وجد ساترفيلد كلامه مهيناً، لكن لم تنزعج رايس على ما يبدو.

لا يصبر الرئيس على الإيجازات. اعتاد القول لمن يقدمها: «أسرع. ليست هذه أول مرة أركب حصاناً جامحاً». كان من الصعب تقديم إيجاز لآخر المعلومات أمامه، لأنه يقاطع المتكلم، ويطرح الأسئلة، أو يلقي بالدعابات الهازلة. ونادراً ما كانت العروض والمناقشات تجري بأسلوب منطقي شامل. واعتقد ساترفيلد أن ذلك يعبر عن حالة من عدم الأمان داخل بوش. كان الرئيس عدوانياً متنمراً.

ظل ساترفيلد يقوم برحلات منتظمة إلى العراق للمساعدة في المفاوضات الحساسة حول اتفاق وضع القوات الذي يسمح لقوات الولايات المتحدة بالبقاء. ولأنه تعامل مع مختلف المسؤولين العراقيين، عرف المدى الذي وصلت إليه الولايات المتحدة في تنصيب نوع من الحكومة الدمية المرتهنة بأوامرها ومساعدتها. فبوجود 157 ألف جندي، وأكثر من 180 ألفاً من المقاولين، وألف من مسؤولي وزارة الخارجية في العراق، كانت الولايات المتحدة هي حكومة الظل. لم يعرف في التاريخ حالة موازية. فإذا انسحبت الولايات المتحدة، فسوف يتداعي بيت الورق برمته.

بحلول ربيع عام 2008، وجد ساترفيلد بغداد أكثر أمناً مقارنة بالزيارات السابقة. فالأسواق مفتوحة، والجنود العراقيون والأمريكيون يسيرون في الشوارع دون ستر واقية. لكن المناطق مغلقة ومطوقة بالحواجز. ولا شيء في الوضع في بغداد يشبه حياة المدينة العادية. واستنتج أن انسحاباً أمريكاً متعجلاً سوف يفجر صراعاً جديداً على السلطة، والموارد، والمناطق، وسيكون المستفيد القاعدة وإيران.

حين فكر ساترفيلد في مستقبل العراق، امتلكه الذهول والحيرة. ثمة خلطة من الأخبار الجيدة والسيئة، فأيها سيسود؟ أيها سيبقى؟

قال: «يتعذر عليك الحديث عن وضع نهائي. أين تنتهي اللعبة؟ ما نهاية اللعبة؟».

في أوائل آذار 2008، نشرت مجلة إسكوايرEsquire مقالة مطولة كتبها توماس بارنيت، الذي عمل سابقاً أستاذاً في الكلية البحرية وسافر مع الأدميرال فالون إلى الشرق الأوسط. حملت المقالة المستفزة المؤلفة من 7500 كلمة عنوان: «الرجل الواقف بين الحرب والسلام». وامتدحت في معظمها فالون لكنها صورته بوصفه الرجل «الذي تحدى بوش وتشيني بعناد» حول سياسة العراق [3].

كان فالون في بغداد حين نشرت المقالة في الحادي عشر من آذار. فأدرك على الفور ما ستسببه من ضجة. وعرف أنه يقف أصلاً على أرض غير مستقرة. قبل أيام، حذر غيتس من أن المقالة ستنشر. والآن اتصل به ثانية.

قال فالون: «أعتقد أن علي الرحيل».

قال غيتس: «حسناً».

كان بمقدور وزير الدفاع تحمل تصويت بالثقة والدفاع عن القائد الذي يعمل تحت إمرته. ولو حدث ذلك لبقي فالون. لكنه شعر بأن غيتس يريده أن يخرج، ولديه الآن سبب ليخرجه.

اتصل أحد مساعدي فالون ببترايوس وقال إن فالون يريد لقاءه.

«حسناً، سآتي حالاً».

قال المساعد إن اللقاء شخصي ويريد فالون أن يلقاه إما في مكتب بترايوس أو في مقره.

وصل فالون إلى مقر بترايوس في الوقت الذي ظهر فيه غيتس على شاشة شبكة فوكس نيوز في مقابلة على الهواء مباشرة.

قال فالون: «لقد استقلت». لم يشغل المنصب سوى سنة واحدة.

قال بترايوس: «حقاً؟». دهش قبل أن يلتفت الاثنان لمشاهدة غيتس على التلفاز.

قال وزير الدفاع: «وافقت متردداً وآسفاً على طلب الأدميرال فالون بالتقاعد. لقد توصل الأدميرال فالون وحده إلى هذا القرار الصعب. وأعتقد أن القرار صائب مع أنني لا أرى في الحقيقة اختلافات مهمة بين آرائه وسياسة الإدارة» [4].

رأي كين فيما حدث فرصة سانحة. بعث برسالة بالبريد الإلكتروني إلى تشياريللي، مساعد غيتس العسكري، في الساعة 3:27 من عصر الثاني عشر من آذار –اليوم الذي وصل فيه إلى بغداد في زيارة جديدة.

«الموضوع: اقتراحات للتفكير الجدي

بيت [تشياريللي]، بعد مرحلة فالون: أعلنْ بترايوس بديلاً، لكن لا تعينه قبل الخريف أو أوائل الشتاء... عين أوديرنو، الذي سيمضي ستة أشهر في الولايات المتحدة، بديلاً لبترايوس... صدقني، سيكون هذا أقوى فريق لدينا لاحتلال المناصب الشاغرة. هذه مجرد اقتراحات. تحية. ج ك».

رد تشياريللي برسالة بعد عشرين دقيقة.

«سيدي –هل تريدني أن أنقل الرسالة إلى وزير الدفاع؟».

قال كين: بكل تأكيد.

* * *

في أثناء تلك الزيارة إلى العراق، تحدث كين إلى بترايوس عن المستقبل. وبدا أن تعيين بترايوس قائداً لحلف النيتو قد حسم.

النيتو مهم، كما قال كين، لكن زمنه ولى وانقضى. وانتقل مركز الجاذبية العالمية إلى الشرق الأوسط. «سوف نبقى هناك خمسين سنة على أقل تقدير، آملين منع الحروب في معظم الأحيان، أو خوضها أحياناً، والتصدي للإسلام المتطرف، وحماية مصالحنا الاقتصادية في المنطقة ومحاولة تحقيق الاستقرار فيها». علينا التفكير بطريقة إستراتيجية من المنظور العسكري فيما يتعلق بكيفية دعم إستراتيجية وطنية للمنطقة. «أين نقيم قواعد؟ أين نخزن المعدات والتجهيزات؟ أين نبني قواعد صناعية متقدمة؟ لأن من غير المنطقي مواصلة إرسالها إلى الوطن».

سيكون لهذا التغيير مضامين ومقتضيات ضخمة على كيفية تثقيف المؤسسة العسكرية وتدريبها، فضلاً على طريقة تعامل الجيش مع المؤسسات الأخرى. قال كين: «سوف نقوم بذلك كله على أي حال لعدم وجود بديل آخر. لذلك فإن القضية هي: يجب التصدي للصعوبات. يجب مواجهتها». لكن الجيش لا يريد ذلك. «يريد إنهاء الحرب والعودة إلى الوطن. لكن هذا لن يحدث».

بدا بترايوس موافقاً لكنه تحدث بحنين عن حلف النيتو.

يجب أن يذهب إلى القيادة المركزية كما قال كين. «ديف، أنت الشخص الوحيد».

«أليس من الأفضل قضاء بعض الوقت مع هولي؟».

«اجعل المنطقة تعتاد على ذهابك إليها بصحبة زوجتك. ابدأ بكسر النموذج السائد. هيا، لدينا وزيرة خارجية تجول المنطقة، مع أنها امرأة».

هز بترايوس كتفيه في إشارة إلى عدم معرفته مثل هذه الأمور.

تشبث كين بإلحاحه: «لا يوجد أحد يبزك في السلطة المرجعية والمصداقية والقوة والنفوذ. الوظيفة لك. ولو أجري تحليل فمن يحتل هذا المنصب سواك؟».

رن الهاتف.

قال بترايوس: «مرحباً بيت. ماذا لديك؟». كان المتحدث تشيارللي.

«حسناً، الساعة الثالثة».

قال لكين: «يريد وزير الدفاع التحدث معي في الساعة الثالثة».

«أنت تعرف الموضوع، أليس كذلك؟».

«أظن أنني أعرفه».

«آمل أن تعطيه الإجابة الصحيحة».

حين كان كين في العراق التقى أيضاً بالسيناتور مكين، الذي يقوم بجولة أخرى في البلد. قال: «ليس لدي أدنى شك أن على بترايوس الذهاب إلى القيادة المركزية». فالمكانة التي حققها داخل الولايات المتحدة وخارجها تجاوزت الحدود كلها، ولم تشهد أمريكا جنرالاً مثله منذ سنين عديدة، والمنطقة تحترم القوة. فإذا عين بترايوس قائداً للقيادة المركزية فسوف يتمتع بقدر أعظم من السلطة والمكانة والهيبة مقارنة بأسلافه. والأهم، حين يتسلم القيادة، سوف تبقى إستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط على حالها، بغض النظر عن الفائز بسباق الرئاسة عام 2008.

فيما يتعلق ببديل بترايوس، لم يجد كين سوى خيار واحد: راي أوديرنو. فهو يتقدم الجميع؛ صلب، ويعرف اللاعبين كلهم. وقد عاد لتوه من العراق ليرشح لمنصب نائب رئيس هيئة أركان الجيش، لذلك عليهم الانتظار ستة أشهر أو نحوها لمنحه وقتاً يقضيه في الوطن. ولن يكون في ذلك مشكلة.

بدا مكين موافقاً وقال إنه سيتصل بالرئيس بوش.

بعد وقت قصير من استقالة فالون، اتصل الأدميرال مولين ببترايوس: «أعرف أنك ستذهب إلى أوروبا. لكن هل ترغب بالقيادة المركزية؟».

أجاب بترايوس: «دعني أتحدث مع زوجتي».

أثار المسألة مع هولي. كانت تتطلع إلى الوظيفة في النيتو. لكنها أذعنت لما دعته لاحقاً «خيبة أمل تحت السيطرة». وعرفت استحالة توقع ما سيحدث في الحياة العسكرية، وكثيراً ما قالت لصديقاتها إنها لم تأخذ قط قياس الستائر الجديدة قبل أن ترى الأمر العسكري بأم عينها.

هوامش:

أتت المعلومات الوارد في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع ثمانية من المصادر المطلعة

1- انظر:

John Affleck, «Al-Maliki Calls on Iraqis to Boost Political Process in Speech Marking Religious Holiday,» associated Press, February 28, 2008.

2- Presidential Documents, March 28, 2007, pp. 437-443 (Vol. 44, No. 12), www.gpoaccess.gov/wcomp/v44no12.html

3- Thomas P. M. Barnett, «The Man Between War and Peace,» Esquire, March 2008.

4- Defense Department new briefing, March 11, 2008, DOD transcripts, www.defenselink.mil.

-41-

في يوم الثلاثاء الثالث من نيسان، قدم كين إيجازاً لرحلته إلى العراق إلى نائب الرئيس تشيني.

قال كين: «أعتقد أن التحسن الأمني إنجاز مدهش في مثل هذه المدة القصيرة. وهذا غير مسبوق في حوليات ممارسة مكافحة التمرد».

أما الخبر السيئ فهو البطء الشديد في وصول المال إلى المحافظات بسبب عجز حكومة المالكي وانعدام فاعليتها. ومن وجهة نظر إستراتيجية كما قال: «لا يمكن أن نخسر عسكرياً. فهذا مستحيل في هذه المرحلة؛ لأن القاعدة، على الرغم من النيات والمرامي كلها، قد هزمت عملياتياً». ما زال من الضروري هزيمتها في الشمال، لكن الأغلبية الساحقة من المتمردين السنة يعملون مع الولايات المتحدة.

وأضاف: «ما يزال من الممكن أن نخسر سياسياً. فقد نخسر إذا لم يرغب قادتنا في واشنطن بالاستمرار في الحفاظ على المكاسب التي تحققت، والانسحاب باستعجال قبل الأوان. وإن حدث ذلك، يمكن أن يفرز عواقب وخيمة، ويمكن أن نخسر».

بحلول تموز، سيخرج ثلث القوات الأمريكية العاملة في بغداد، و60% من القوات المنتشرة في الأنبار. وهذا تخفيض حاد يمكن تحقيقه بفضل «أبناء العراق»، الذين يبلغ عددهم الآن تسعين ألفاً. فضلاً على أن عدد القوات العراقية الأمنية ازداد مئة ألف –وهذه إضافة غير كافية لكنها مهمة.

تتمثل المشكلة الكبرى بوادي نهر ديالى في الشمال، إضافة إلى الموصل وصحراء الجزيرة إلى الغرب. لكن «قواتنا غير كافية»، كما قال كين. ولم يرغب بترايوس باستخدام «أبناء

العراق» السنة المتحالفين مع الولايات المتحدة في تلك المنطقة، بسبب التوترات بين العرب السنة والكرد. «لو كنت محله لتجاهلتها وقمت بالمهمة؛ لأن البرنامج إيجابي، وأعتقد أنه يستحق المحاولة». ثمة عديد من الألوية العراقيين المتقاعدين هناك، وكلهم من السنّة، ورأى كين أن على وكالة المخابرات المركزية دفع المال إليهم لتقليص مستوى العنف.

سأل تشيني: «ألا يحصلون على جزء من المعاشات التقاعدية؟».

أجاب كين: «لم يبدأ العمل بالقانون التقاعدي بعد». صدر قانون للمتقاعدين، ودفعت بعض الرواتب، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لإحداث فارق مهم.

تحول كين إلى جنوب العراق وقال إن منطقة البصرة تعد الآن أهم منطقة إستراتيجياً، لكن القيادة كانت بطيئة في التدخل والعمل. لا يمكن ترك الأمور إلى العراقيين، مثلما كانت الخطة، بسبب النفوذ الإيراني هناك وانحسار الاهتمام الأمريكي. أما البريطانيون، الذين احتفظوا بقواتهم في الجنوب مدة طويلة، فقالوا إن المشكلة سياسية لا أمنية. «هذه خرافة»، كما قال كين. فالبصرة الآن تشبه «الغرب الأمريكي الضاري»، وقائد شرطة البصرة أبلغ كين أن 80% من قوات الشرطة متحالفة مع الميليشيات. المنطقة تمثل تهديداً أمنياً داهماً.

ظل الجنرال قاسم سليماني، قائد قوة القدس، التي تعد من نخبة قوات الحرس الثوري، يعمل في المنطقة منذ عشر سنين. وقال كين إنه «ذكي، وداهية، وقاس لا يرحم». ولدى الإيرانيين «كتيبتان في البصرة تتبعان نموذج حزب الله». والإدارة الأمريكية بحاجة إلى إستراتيجية شاملة لصد النفوذ الإيراني وهزيمته داخل العراق. وتحتاج أيضاً إلى المشاركة مع البلدان الأخرى في المنطقة التي لديها مصالح في العراق. يمكن أن تترك هذه المسألة لبترايوس. فاللواء العراقي في البصرة يفتقد القدرة والكفاءة، كما ذكر كين. فقد قال له مباشرة إن خطته لنزع سلاح الميليشيات سخيفة. فالسلاح متوافر في العراق إلى حد أن كل من ينزع سلاحه يستطيع استبداله في ساعات معدودات. وقال كين إن من الضروري إشراك قيادة العمليات الخاصة المشتركة، أو ما دعاها بالقوات السرية، في قتل قادة العدو أو اعتقالهم.

وأضاف إن تخفيض القوات إلى خمسة عشر لواء بحلول تموز أمر محفوف بالخطر. فسوف نظل بحاجة إلى ثمانية عشر على أقل تقدير، لكن من المتعذر تخفيض العدد إلى أقل من خمسة عشر في أي وقت من عام 2008. ثم كرر اقتراحه بترقية بترايوس إلى منصب قائد القيادة المركزية، وأوديرنو إلى قيادة القوات في العراق.

سأل تشيني: «هل يرغب راي بالذهاب [إلى العراق]؟».

أجاب كين بأنه يعمل على هذه المسألة.

بعد أربعة أيام، في السابع من نيسان، دعا غيتس كين إلى البنتاغون ليقدم له إيجازاً لآخر ما لديه من معلومات. لخّص كين ما قاله لتشيني من قبل: التحسن الأمني مدهش، ويثبت صحة ممارسات بترايوس في مجال مكافحة التمرد. وأضاف إنهم بحاجة الآن إلى ثمانية عشر لواء، ويتعذر تخفيض العدد إلى أقل من خمسة عشر في أثناء عام 2008. «يمكن للواء أو اثنين أن يمارسا تأثيراً حاسماً في العراق». ولحسن الحظ، كما قال، هناك سبل للتغلب على مشكلة الافتقار إلى ثمانية عشر لواء عبر استخدام «أبناء العراق».

قال كين: «من الممكن إقامة عراق آمن ومستقر. وحكومة متحالفة مع الولايات المتحدة –أصبح ذلك كله غاية ممكنة التحقق لنا. ما كنا لنتصور ذلك عام 2006، ولا في عام 2007. ويقول المعارضون الذين اختلفوا معنا إن تكاليف الحرب باهظة». ثم تلا إحصائيات تتعلق بالنسب الأعلى التي أنفقتها الولايات المتحدة من ناتجها المحلي الإجمالي على الحروب السابقة مقارنة بما أنفقته في العراق وأفغانستان. وقال إنهم بحاجة إلى حملة فاعلة ونشطة لدحض حجج منتقدي الحرب.

والأهم: «يجب أن تعين بترايوس في القيادة المركزية». اعمل على تأخير التعيين إلى الخريف، واجعلْ أوديرنو القائد الجديد للقوات في العراق. فحين خدم أوديرنو قائداً للوحدات في العراق، كما قال كين، كان البطل غير المتوج لإستراتيجية العراق. «عندما وصل وبدأ تسلم مسؤولياته في تشرين الثاني [2006]، شرع في تغيير الإستراتيجية وجمع الخطط معاً فاصطدم بعقبة اسمها الجنرال كيسي».

قال كين إن أوديرنو يتمتع بالذكاء والشجاعة الأخلاقية. فبعد تسلم بترايوس القيادة في شباط عام 2007، ذهب (كين) إلى العراق ونظر إلى الوضع عن كثب، فأدرك أن أوديرنو بحاجة إلى زيادة في عدد القوات تراوح بين 8-10 ألوية، بدلاً من الأولوية الخمسة التي سترسل إليه. وبالطبع، لم يكن هناك مزيد من الألوية، ولذلك اضطر إلى الارتجال والتكيف مع ما هو متوافر.

لكن الأهم أن أوديرنو أدرك الفرصة السانحة لعكس مجرى الأمور في محافظة الأنبار. ووفقاً لكين، فإن أوديرنو أبلغ مساعديه وموظفيه: «ما يحدث في الأنبار يمكن أن يحدث في أرجاء العراق كافة. يجب أن نفهم مدى قوة ما يجري وتأثيره». وأصدر تعليماته إلى قسم منهم بعدم القيام بأي شيء سوى العثور على السنة أو المتمردين السابقين الراغبين في مساعدة الولايات المتحدة. «يستطيع رؤية الأشياء التي لا يراها الآخرون بكل بوضوح. فهو فريد لا يضاهى»، كما قال كين.

«لنكن صريحين حول ما يحدث هنا. سوف يكون لدينا إدارة جديدة. فهل نريد استمرار هذه السياسات أم لا؟ هل نريد أن يشغل المناصب المهمة أفضل الرجال الذي شاركوا في رسم هذه السياسات، والذين طالبوا بها ودافعوا عنها؟ لنفترض أن الإدارة القادمة ستكون ديمقراطية وتريد التراجع بسرعة عنها، عندئذ عليها التعامل مع الجنرال بترايوس والجنرال أوديرنو. وستدفع ثمناً إن أرادت تجاهلهما أو تجاوزهما».

في الثامن من نيسان، عاد بترايوس وكروكر إلى الكونغرس لعرض آخر المستجدات. قال بترايوس: «لم نتجاوز المرحلة الحرجة. لم نر أي أضواء في نهاية النفق». ثمة تقدم تحقق لكنه «هش ويمكن عكسه».

لكن في منتصف أيار، بعث بترايوس برسالة إلى صديق في الولايات المتحدة عبر البريد الإلكتروني لاحت فيها بارقة أمل، حيث قال إنه يقترب من إجابة السؤال الذي طرحه قبل خمس سنين في الصحراء التي تعصف بها الريح في أثناء الأسبوع الأول من الغزو: «قل لي كيف سينتهي هذا كله؟».

كتب يقول: «شهدنا في الأسبوع الماضي أدنى مستوى من العنف منذ أن تفجر العراق في نيسان من عام 2004. لا شيء سهل، لكنني أستطيع في بعض الأيام أن أرى بطريقة مبهمة كيف سينتهي هذا كله».

عرف غيتس أن بترايوس هو الخيار الطبيعي لاستبدال فالون. إذ لا يوجد قائد آخر أكثر معرفة بالعراق واطلاعاً على شؤونه، وعمل بنحو وثيق وفاعل مع أوديرنو. بعد أسبوعين، في الثالث والعشرين من نيسان، دعا غيتس إلى مؤتمر صحفي.

«بالاتفاق مع رئيس هيئة الأركان المشتركة، أوصيت بتعيين الجنرال ديفيد بترايوس قائداً جديداً للقيادة المركزية، ووافق الرئيس وسوف يرشحه. سنسحب ترشيح الجنرال راي أوديرنو لمنصب نائب رئيس هيئة أركان الجيش، ونرشحه لمنصب القائد الجديد للقوة المتعددة الجنسية في العراق، ليحل محل الجنرال بترايوس».

قال غيتس إن بترايوس سيبقى على الأرجح في العراق حتى أواخر الصيف أو الخريف. إذ لم يمض على عودة أوديرنو إلى الوطن سوى شهرين تقريباً وهو بحاجة إلى استراحة بين المناوبتين.

«من المرجح أن يحافظ هذا الترتيب على استمرار الزخم والتقدم»، كما قال غيتس. وحين سأل أحد المراسلين الوزير هل تؤشر الخطوة على «مقاربة التشبث بالمسار» من قبل الإدارة، أجاب: «أعتقد أن المسار الذي وضعه الجنرال بترايوس كان مساراً ناجحاً بالتأكيد. وبصراحة، أحسب أن التشبث بذلك المسار ليس فكرة سيئة».

بحلول أوائل أيار 2008، تحسن تقويم وكالات الاستخبارات الأمريكية للمالكي قليلاً مقارنة بالماضي، لكن بقيت مشكلات عديدة دون حل. قال واحد من أكثر مسؤولي الاستخبارات خبرة وأعلاهم رتبة في الحكومة الأمريكية: «لم يعد راغباً في الانحياز إلى طرف دون آخر؛ فهو مستقل وواثق». لكن مهارات حكومته بقيت ضعيفة. «ما يزال طائفياً ولم يغير

مواقعه. ففي صميمه يكره السنة. ولم يستفد من الكرد». ما زال التقدم السياسي يعتمد على المصالحة. «ولا ينال المالكي سوى درجة الرسوب فيما يتعلق بهذا الموضوع». وبعد شهر، قال المسؤول ذاته بعد أن راقب المالكي وهو يتولى عمليات الهجوم على المليشيات الشيعية، إنه سيرفع درجة المالكي إلى «فوق الوسط».

بحلول صيف عام 2008، استعد تشيني لترك معترك السياسة. فبعد أربعة عقود من العمل في الحكومة، اعتقد أن الوقت قد أزف. شعر أن قرار غزو العراق كان صائباً. فقد غرست الولايات المتحدة حكومة منتخبة ديمقراطياً في قلب الشرق الوسط، وأنزلت هزيمة كبرى بالقاعدة، كما أكد. وبرأيه، كانت سياسات بوش المتعلقة بالإرهاب سليمة وصحيحة. أما برنامج رصد الإرهاب، الذي يفوض وكالة الأمن الوطني بالتنصت على المشتبه في ضلوعهم بالإرهاب في الولايات المتحدة دون أوامر من المحكمة، فكان ضرورة ملحة. وبعد الجدل كله، وافق الكونغرس أخيراً على الفقرات الأساسية فيه. وعلى الرغم من الجدل الخلافي ومزاعم التعذيب، رسخت الإدارة، كما اعتقد، برنامجاً فاعلاً وضرورياً لاستجواب المعتقلين المهمين، حتى مع استعمال الأساليب القاسية ضدهم مثل الحرمان من النوم، أو التعذيب بالماء، أو الإحساس بالغرق.

كان تشيني مقتنعاً أن قلب الحملة الرئاسية لعام 2008 وروحها سوف يدوران حول الأمن القومي —حرب العراق وبرامج مكافحة الإرهاب الهجومية الجريئة. واعتقد أن مكين، خلافاً لأوباما، سوف يتابع المسيرة.

في أثناء سنوات تشيني في إدارة بوش، تحول المقر الرسمي لإقامة نائب الرئيس في نيفال أوبزفاتوري (في شمال غرب واشنطن) إلى قلعة تضم ملجأ حصيناً تحسباً لوقوع هجوم إرهابي آخر. ووفر حراس أمن مسلحون، وحواجز متعددة، وكلاب مدربة على اكتشاف المتفجرات، وسياجان أمنيان الحماية للمنزل، وهو دارة فخمة لكن عتيقة بنيت على تل في القرن التاسع عشر وفق الأسلوب المعماري الشائع في أوائل القرن الثامن عشر.

في صيف عام 2008، احتاج المنزل وأثاثه إلى تجديد. فقد بلي السجاد والأثاث ونضا لونهما الفاتح. وبدت غرف الطابق الأول مهجورة، كأنما انتقل ساكنوها. كان تشيني فخوراً برف طوله متر اصطفت عليه كتب جلدية الأغلفة عن صيد السمك بطعوم من الذباب، غالبيتها كلاسيكية. أغرم بصيد الطيور والسمك، وبعد ثمانية أعوام في منصب نائب الرئيس، أغراه وزوجته لين بيتُهما الصيفي قرب نهر سنيك الذي يتلوى مجراه الأفعواني في ولاية ويومنغ. لكن قبل عقد من السنين، ابتاع الزوجان أرضاً في مكلين، أرقى ضواحي فيرجينيا، وأشرفا على بناء منزل جديد عليها، وقررا الانتقال إليه بحلول عام 2009. ربما فضل هو التوجه إلى نهر سنيك، لكن لين أرادت البقاء قرب واشنطن. فقد أمضى الزوجان عقوداً في العاصمة، فضلاً على أن ابنتيهما وأحفادهما الستة يعيشون في المنطقة.

عرف تشيني أنه أصبح في نظر معظم الأمريكيين دارث فادر جيله، شخصاً شريراً غامضاً يقبع متخفياً في الظلال. وزعم أن ذلك لا يقلقه؛ لأنه طور جلداً سميكاً تلقى عليه ما يكفي من اللكمات. كان بمقدوره الاكتفاء بدور أكثر تقليدية: نائب رئيس تنحصر واجباته في حضور الجنازات الرسمية وجمع التبرعات. لكنه حضر أكثر من حصته من مناسبات جمع التبرعات، حيث تفوق دوماً في جمعها لمصلحة الجمهوريين. لكن قبل ذلك، قرر جعل منصبه مهماً وضرورياً. وهكذا، ظل في قلب الحدث، يرسم السياسة، ويعمل على تقوية السلطات الرئاسية.

لكل شيء ثمن. فإذا كان سبيله المختار يعني مغادرة المنصب وهو رمز للولع بشن الحروب والتطرف والغلو، فهو على استعداد لدفع الثمن.

عبرت مقاربة تشيني الواقعية والبعيدة عن العواطف لمنصب نائب الرئيس عن رأيه بمنصب الرئيس نفسه. في عام 2005، قابلت تشيني في مكتبه في الجناح الغربي وسألته عن الرئيس السابق جيرالد فورد. وكان قد عمل كبيراً لموظفي فورد وظل واحداً من كبار المعجبين به. في نهاية المقابلة، طرحت سؤالاً أكثر عمومية. حاولت فيه معرفة رأيه بالرئاسة بعد اقترابه منها طوال ثلاثة عقود.

سألته: «ما تعريف وظيفة الرئيس؟ تعريفي لها هو: تقرير الخطوة اللاحقة التي تتخذ لمصلحة غالبية الشعب في البلد... ثم وضع خطة لتنفيذها، ثم تنفيذها».

أجاب تشيني: «ليست هذه طريقة تفكيري فيها. فأنا أميل إلى التفكير فيها من منظور وجود مهمات معينة يجب على الأمة القيام بها، مهمات يجب إنجازها. في بعض الأحيان تكون هذه المهمات مقيتة جداً، مثل إرسال القوات إلى قتال، أو خوض حرب. ورئيس الولايات المتحدة هو الذي يُحمَّل هذه المسؤولية...».

«المهمات التي يحتاج الرئيس إلى إنجازها مهمات صعبة. لكن ليست كلها كذلك. فهناك كثير من المهمات الرمزية، والجوانب الرمزية من الرئاسة مهمة. يمكن أن يمثل الرئيس مصدر إلهام، ويضع الأهداف والغايات –'لنذهب إلى القمر' مثلاً– لكنه يستحق راتبه حين يجلس ويتخذ فعلاً تلك القرارات الصعبة التي هي في الواقع قرارات حياة أو موت تؤثر في أمن الأمة وأمانها وبقائها، وخصوصاً أولئك الذين نرسلهم لمواجهة الخطر لضمان هزيمة أعدائنا، ودعم أصدقائنا، وحماية أمتنا».

«بهذه الطريقة أفكر في الرئاسة».

بحلول تموز 2008، شعر غيتس أن العراق أفضل حالاً حتى من أحلامه حين تسلم منصب وزير الدفاع قبل ثمانية عشر شهراً. أما المشكلة الرئيسة الآن فهي المبالغة العراقية في الثقة بالنفس. فقد اعتقد رئيس الوزراء المالكي أنه يمر بحقبة من النجاح والحظ السعيد في أعقاب انحسار موجة العنف على مدى عدة شهور.

لكن غيتس أدرك أن المسعى برمته يبقى هشاً. ومع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية (بعد أربعة أشهر)، شعر أن الانتخابات إذا أصبحت نوعاً من الاستفتاء على العراق، فإن الشعب الأمريكي ما يزال يريد إنهاء الحرب، وفي وقت أسرع مما تتطلبه الحكمة ووضع الولايات المتحدة على المدى البعيد بحسب اعتقاده. والآن، بدا له أن القضية الحقيقية في الحملة الحربية ليست متمثلة بتخفيض عدد القوات، بل بمدى السرعة في تخفيضها. وأمل أن يتمكن بترايوس وأوديرنو، كل في منصبه

الجديد، من تقرير وتيرة الانسحاب المناسبة. ومن الأفضل أن يترك لهما تحديد الشروط والظروف، بدلاً من أن تحددها السياسة في هذا الوقت. وبمعنى من المعاني، يمكن للجنرالين كبح جماح الرأي العام وتأثيره.

حين تحدث غيتس في السر عن الحرب مع الأعضاء الجمهوريين والديمقراطيين في الكونغرس، حذر قائلاً: «هل خطر في بالكم أنكم لا تريدون من أولئك الذين انتقدوا منكم عدم تركيز انتباه كاف على الجنرالات في بداية الحرب، أن يكرروا الخطأ ذاته عند نهايتها؟».

بحلول تموز 2008، كان هادلي يأمل أن يتخذ التقدم السياسي الحقيقي في العراق شكلاً واقعياً. فالمرة الأولى، بدا أن السنة والشيعة يعملون على حل المشكلات دون عنف، مع أن الخطوات بطيئة إلى حد مؤلم. إذ إن حجم العنف الطائفي الذي اكتسح البلد قبل سنتين، وأردى في ذروته ألفين من «قتلى العنف الإثني-الطائفي» في الشهر، تراجع إلى الصفر تقريباً، وفقاً للجنرال بترايوس. وعلى وجه الإجمال، انخفض عدد الهجمات من الذروة التي بلغ عندها 1550 إلى مئتين أسبوعياً. أي قرابة ثلاثين في اليوم —صحيح أن العدد مرتفع، لكن هادلي وجد في الانخفاض مقياساً حقيقياً للنجاح.

وبلغ حد القول إن للقاعدة فضلاً كبيراً على الولايات المتحدة والعراق. إذ منحت أساليبها الوحشية والعنفية، وتحكمها القمعي بكثير من المجتمعات المحلية، السكان العراقيين سبباً للتوحد ضدها. واعتقد أن غزو الولايات المتحدة عام 2003 حرر العراق، لكنه مثل إذلالاً مهيناً لمواطنيه أيضاً. واقتنع بأن على الشعب أن ينتصر بمعركته في نهاية المطاف: هذا هو «التحرر الذاتي» بحسب تعبيره. لقد منحت القاعدة العراقيين فرصة الحصول على حريتهم وبناء روايتهم السردية الخاصة عن الانتصار.

بل وزع نسخاً من مقالة توماس فريدمان التي نشرت في صحيفة نيويورك تايمز في الثامن والعشرين من حزيران 2008، وناقشت الأهمية السيكولوجية لـ«التحرر الذاتي» في الشرق الأوسط. لكن فريدمان، الذي أيد الحرب في البداية ثم انتقدها انتقاداً قوياً فيما بعد، اختتم مقالته بتحذير:

«العراق على مسافة بعيدة من الوضع الصحي السليم. والآن، بعدما بدأ أتباع الطائفتين الشيعية والسنية تولّي مزيد من مسؤولية بلدهم، سوف نشهد صراعاً شديداً على السلطة وعلى من يهيمن داخل كل طائفة. ومع تراكم البترودولارات، سيتعاظم الصراع عليها. لكن إن أسعفنا الحظ، فسينحصر هذا الصراع في الساحة السياسية. أما إن عاندنا؟؟ حسناً، دعونا نأمل أن يسعفنا».

قالت رايس في أثناء اجتماع عقد في وزارة الخارجية في أيار 2008: «اعتقدت منذ اليوم الأول أن العراق سوف يغير وجه الشرق الأوسط. ولم أتوقف قط عن الاعتقاد بذلك». لكنها اعترفت بأنها «تساءلت في بعض الأوقات في عام 2006 هل سيغير وجه الشرق الأوسط إلى الأحسن أم الأسوأ؟».

في تلك الأيام الصعبة، حين ظل مستوى العنف يتصاعد ويتمزق نسيج المجتمع العراقي ذاته، كثيراً ما فكرت في الأيام المبكرة من الحرب الباردة في أواخر الأربعينيات، وعقدت مقارنات بين ذاك الصراع والصراع الحالي. في ذلك الحين، بقي مستقبل أوروبا غامضاً ومغلفاً بعدم اليقين. وتولت الولايات المتحدة تنفيذ خطة مارشال للمساعدة على إعادة بناء البلدان التي دمرتها الحرب العالمية الثانية، وأعلن الرئيس هاري ترومان بكل وضوح مبدأ وقف انتشار الشيوعية لحماية اليونان وتركيا. فجر الاتحاد السوفييتي قنبلته الذرية قبل سنين من الموعد المتوقع، واستولت الشيوعية على الصين. واندلعت الحرب الكورية، التي فقدت شعبيتها باطراد.

وعلى الرغم من ذلك كله، انهار الاتحاد السوفييتي عام 1991، وانتهت الحرب الباردة دون إطلاق رصاصة واحدة.

قالت رايس: «النظرة البعيدة المدى تفيد. كنت ألجأ إلى هناك طالباً السكينة وراحة البال. وأعتقد أن الرئيس فعل ذلك أيضاً».

رفضت رايس فكرة أن الشرق الأوسط كان مستقراً إلى أن أتت إدارة بوش وزعزعت استقراره بغزو العراق. فكل من يفكر بتلك الطريقة لا يعرف الوضع الحقيقي. «أي

استقرار هذا وصدام حسين يطلق النار على طائراتنا، ويهاجم جيرانه، ويسعى إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل، ويشن حرباً كل بضع سنين؟ أي استقرار والقوات السورية في لبنان منذ ثلاثين سنة؟ وياسر عرفات يخدع الشعب الفلسطيني ويرفض السلام؟». لا، لم يكن هناك أي استقرار، كما قالت، وسياسة الحقد السائدة في المساجد المتطرفة ساعدت في إنتاج القاعدة. صحيح أن القاعدة تهدد الآن باقتناص موطئ قدم لها في جنوب شرق آسيا والقرن الإفريقي، لكن ميدان المعركة الحقيقي يقع في الشرق الأوسط، كما أكدت. «إذا هُزمت في الشرق الأوسط، فلن تتمكن من الفوز».

قالت دون أي تردد: «لا شيء أعظم من فخري واعتزازي بتحرير العراق. هل ارتكبنا بعض الأخطاء؟ بالتأكيد. كان حدثاً تاريخياً ضخماً، ولم نتعامل مع فصوله كلها بطريقة جيدة. أنا أول من يقول ذلك».

لكن رايس تعفي نفسها غالباً من مسؤولية المشكلات التي ظهرت في الشهور العشرين الأولى من الحرب، حين كانت تحتل منصب مستشار بوش لشؤون الأمن القومي. «لم تكن إدارة العراق من مسؤوليتي. وحقيقة الأمر أن مستشار الأمن القومي يحمل كثيراً من المسؤولية لكن دون أي سلطة تذكر».

أكدت رايس أن إحدى نتائج الحرب تحسن مكانة الولايات المتحدة ووضعها في الشرق الأوسط. صحيح أن إيران ضاعفت صيدها فيما دعته بـ«المياه العربية العكرة»، ودعمت حزب الله اللبناني، وزادت نفوذها في الأراضي الفلسطينية، لكن «في أعقاب ما حدث في العراق أصبح بالإمكان تشييد شرق أوسط يُكبَح فيه نفوذ إيران وتأثيرها»، كما أصرت.

عدّت رايس الحرب «إعادة ترتيب للشرق الأوسط. فمن جهة، هناك السعودية، ومصر، والأردن، ودول الخليج» تدعم الاعتدال. «ومن جهة أخرى، هناك إيران، وحزب الله، وحماس»، مع سوريا المتقلبة التي تبدل تحالفاتها، كما قالت. وشعرت بأن التلاحم بين حلفاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط لم يكن أشد تماسكاً من وضعه الحالي، على الرغم من أن هذه البلدان لم ترغب في الوقوف في الخطوط الأمامية لدعم الولايات المتحدة وتأييدها.

فيما يتعلق بإيران، قالت رايس: «لن ندع الإيرانيين يستخدمون المفاوضات غطاء يستر استمرارهم في تحسين قدراتهم النووية... إذ تعد إيران تحدياً لمصالحنا؛ لأنها تريد في الجوهر أن تصبح اللاعب الإقليمي المهيمن. ولن نجلس ونتحدث معها حول كيفية تحولها إلى قوة عظمى ثانية في الشرق الأوسط، وهذا ما تريده».

«لا يمكن أن نسمح لها باكتساب قدرة نووية؛ لأن ذلك يعزز مطلبها ويقويه بالحصول على مكانة القوة العظمى في المنطقة». وقالت إن تاريخ الاتحاد السوفييتي مفيد ويجب أن نتعلم منه. «فقد أصبح الاتحاد السوفييتي نووياً قبل أن يصبح قوياً». وأجرى أول تجربة للسلاح الذري في التاسع والعشرين من نيسان 1949. «وحقيقة أنه أصبح دولة نووية جعلته قوياً. ولا أريد ذلك أن يحدث مع إيران، ولهذا السبب لو استطعت وقف نشاطهم في هذا المجال فسيكون لدي وقت كاف».

«هناك فكرة عن الدبلوماسية تشير إلى أنها تعقد الصفقات لتحقيق استقرار الوضع. ولقد انهارت الآن هذه المجموعة من الصفقات التي تحقق الاستقرار في الشرق الأوسط، ونحن سعداء بالتحرر من قيودها. الآن، قبل إعادة الاستقرار إلى الشرق الأوسط، لنحرص على عدم التقيد بإسار صفقات سيئة. قبل شهر، كان جيش المهدي يحكم البصرة، والآن لم يعد يحكمها. تكتيكياً، أفضل الحديث مع الإيرانيين حول العراق الآن على محادثتهم حوله قبل شهر».

قالت رايس إن قيام دولة فلسطينية سيحرم الإيرانيين من فرص التدخل في المنطقة. وأضافت: «أعتقد أن وجود عراق قوي يجسد أسوأ كوابيسهم كما سيتبين لاحقاً».

«لا أريد أن أعقد صفقة كبرى مع آية الله خامنئي و[الرئيس] أحمدي نجاد؛ لأن تلك الصفقة الكبرى ستكون نوعاً من القاسم المشترك الأصغر ولن تناسب الصورة التي يجب أن يبدو عليها الشرق الأوسط». ثم بدأت تتحول إلى النموذج السوفييتي. ربما تبدأ «الحماسة الثورية» في إيران في حرق ما دعته بالأهداف «التوسعية» الإيرانية وتقليصها.

«دعنا نقول إن علينا التعايش مع الدولة الإيرانية الثورية بعض الوقت. فهل أفضل العيش مع دولة إيرانية ثورية والقوات الأمريكية منتشرة في العراق وأفغانستان والخليج

وآسيا الوسطى؟ بالتأكيد. حين أسمع أن الإيرانيين يستفيدون من الوضع، أفكر: كيف ينظر جيرانهم إليهم؟ ما حدث فعلاً أن مركز القوة الأمريكية تغير بدءاً من حرب الخليج الأولى [1991]، وبعد الحادي عشر من أيلول خاصة». ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية، نقلت الولايات المتحدة بؤرة تركيز قوتها العسكرية ونشاطها الحربي إلى أوروبا، لكن تطلب انهيار الاتحاد السوفييتي أربعة عقود. والآن، انتقلت القوة العسكرية الأمريكية إلى الشرق الأوسط.

في يوم التنصيب عام 2009، لن يقول أي رئيس أمريكي، ديمقراطياً كان أم جمهورياً، إن إدارة بوش قد نجحت في إصلاح الوضع في الشرق الأوسط، كما أقرت رايس. لكنها اعتقدت أن عراقاً ديمقراطياً سيبزغ بمرور الزمن، وسوف تتغير إيران أو تهزم، وسيتحرر لبنان من القوات السورية، وتقوم دولة فلسطينية. ولن يكون أي من هذه الأهداف ممكناً دون تحقيق نوع من النصر المستقبلي في العراق. «لم يكتف هذا الرئيس بتحريك عجلة الأمور، بل وضع الأساس الضروري لتوجيه دفتها لمصلحتنا».

«لم نأت إلى هنا للحفاظ على الوضع القائم. فالوضع القائم ينهار في الشرق الأوسط. ستكون الحالة بشعة بطريقة أو بأخرى؛ وهذا ما يحدث في سبيل القضايا العادلة. ومع ظهور العراق كما هو الآن، سوف تحدث نكسات ومشكلات وصعوبات. هكذا يحدث التغيير التاريخي دوماً. هناك أشياء كثيرة فعلتها لو منحت الفرصة لقمت بها بطريقة مختلفة. لكن الشيء الوحيد الذي لن أفعله بطريقة مختلفة هو تحرير العراق. لو منحت الفرصة لكررت ما فعلته في العراق ألف مرة، ألف مرة».

فيما بعد، سألت الرئيس في المكتب البيضاوي هل سيكرر ما فعله هو أيضاً «ألف مرة».

قال: «كان قرار إطاحة صدام قراراً صائباً. وأقول هذا للجميع وللشعب الأمريكي».

ما الذي يثير قلق الرئيس أكثر من غيره فيما يتعلق بمجال الأمن القومي؟ إيران؟ العراق؟ أفغانستان؟

قال بوش: «مد الأصولية المتطرفة التي تؤجج لهيبها الدول وتحمل أفكارها تلك الجماعات الكامنة في المناطق اللينة في شتى أرجاء العالم، وقدرة هؤلاء الذين يستهدفون إيذاء أمريكا وحلفائنا على امتلاك سلاح خطر واستخدامه. لقد استخدموا الطائرات آخر مرة على ترابنا الوطني. وفكرة امتلاكهم قدرات بيولوجية أو كيميائية مرعبة جداً».

قلت له إن رايس عبرت عن ذلك بالقول: «كل يوم هو الثاني عشر من أيلول».

قال بوش: «هذا أسلوب شعري في التعبير، لكن أكثر ما يجب أن يخشاه أي رئيس – ومواطن- أن تصبح بلادنا انعزالية، ولا تهتم بما يحدث في العالم. أنا أفكر في أمن البلد على الدوام».

«في كل يوم تجلس فيه على هذا الكرسي تدرك أن أكبر مسؤولياتك هي منع تعرض أمريكا للهجوم مرة أخرى؛ توفير الأمن والسلامة للناس. لكن أدرك أيضاً أن الأمن على المدى البعيد يتحسن عبر مساعدة الناس على إدراك نعم الحرية وآلائها. بالنسبة إلى بعض الأمريكيين، يبدو ذلك نوعاً من المبالغة في التفاؤل الخيالي. لكن إذا نظرت إلى التاريخ، تجد أن الحرية نجحت. لقد نجحت. إنها قوة فاعلة. الحرية عامل تغيير تحويلي. والجدل الواسع الآن يدور حول قدرة المسلمين على حكم أنفسهم، وهل مساعدتهم على التحول إلى مجتمعات حرة تستحق العناء. أؤمن بقوة أن المجتمعات الحرة، أو التي يحدوها الأمل، قادرة على تهميش هؤلاء المتطرفين، وأن تأثيرهم سيضمحل ويختفي بمرور الزمن. هذا لا يعني القول إن القتلة سيختفون عن وجه الأرض، لكن عددهم سينقص، وسينقلب عامة الناس ضدهم، وسيظهر نوع من الجماعات المهتمة والمعنية من المواطنين».

دخل جوش بولتون إلى المكتب البيضاوي وقال إن لدى الرئيس موعداً على الغداء وإنه تأخر.

قال لي بوش: «أجل. هيا تحرك. كم لديك من أسئلة إضافية؟».

قلت: «بضعة أسئلة»، ولدي بالطبع المئات.

«من الأفضل أن تسرع. أشعر بأنني أصبحت أقل تساهلاً ورغبة في الحديث، مثلما قد تحزر. أولاً أنا جائع. وثانياً، عندي اجتماع».

«هل هناك نوع من إعادة مركزة للقوة الأمريكية في الشرق الأوسط؟».

«أجل بالتأكيد. وهي ضرورية. أما السبب وراءها فهو أنه المكان الذي انطلق منه هجوم فتاك. وهو المكان الذي قد تنطلق منه هجمات فتاكة أخرى. وفكرة امتلاك إيران سلاحاً نووياً فكرة بالغة الخطورة. وفكرة امتلاك بعض البلدان للقدرة، القدرة النووية، ثم إعطائها إلى الجماعات الإرهابية التي تستطيع استخدامها فكرة مميتة أيضاً».

«ومن ثم لدينا هيمنة عسكرية على المنطقة، لأسباب عملية؟».

أجاب الرئيس: «نحن نشجع هيمنة الحرية. ونحاول دفع الحرية قدماً».

تدخل هادلي، منبهاً الرئيس لمضامين كلمة «هيمنة»، التي تعني السيطرة أو الزعامة وتحمل مداليل إضافية تشير إلى الإمبراطورية.

قال الرئيس: «إنها كلمة مشحونة بالمعاني، مثلما تعرف جيداً».

وافقته الرأي: «إنها كلمة مشحونة».

قال بوش: «إنها كلمة ماكرة جداً ومتداولة في واشنطن. ماكرة جداً يا ودوارد. ماكرة جداً».

اعترضت قائلاً: «لا، لا».

قال بوش: «أجل، إنها كذلك، من أساليب ودوارد التكتيكية».

قلت: «إذا استمعت إلى الوزيرة رايس عن هذا الموضوع لعرفت أنها مبتهجة جداً لوجود هذه القوات كلها هناك».

قال الرئيس: «هل نشر الجنود في كوريا يعد هيمنة؟ لا أظن ذلك. هل نشر الجنود في اليابان يعد هيمنة؟ هل نشر الجنود في ألمانيا يعد هيمنة؟ لا. لدى الولايات المتحدة جنود موجودون بدعوة من الحكومات للمساعدة على توفير الأمن. وهذا بالمناسبة يساعد على توفير الشروط اللازمة لتقدم قضية الحرية».

هوامش:

أتت المعلومات الواردة في هذا الفصل أساساً من مقابلات شخصية مع سبعة من المصادر المطلعة.

1- انظر:

Lolita C. Balder, «Petraeus Charts Violence in Iraq,» Associated Press, April 8, 2008.

2- Defense Department new briefing, April 23, 2008, DOD transcripts, www.defenselink.mil.

3- مقابلة مع الرئيس بوش، 2008/5/21.